الرسول الكريم ﷺ في كتابات المستشرقين
(الاستشراق البريطانيّ أنموذجًا)

م.م عصام فخري برتو[1]

المقدِّمة

تُعدّ دراسة كتابات المستشرقين في التاريخ الإسلاميّ من أهمّ الموضوعات وذلك للوقوف على ما تضمّنته تلك الكتابات، لا سيّما وأنّ عددًا منها قد كُتبت لأغراض معيّنة منها المساس بالدين الإسلاميّ والتشكيك به، ومهاجمة رموز الإسلام ومحاولة الدسّ والاستناد إلى الافتراضات غير المنطقيّة.

من هذا المنطلق، ولغرض بيان هذا النوع من الكتابات ومحاولة الردّ عليها، كان اختياري لهذا الموضوع، متخصّصًا في المستشرقين البريطانيّين لكثرة ما حاولوا تشويهه من التاريخ الإسلاميّ.

الاستشراق مادّة دراسيّة مهمّة وخطيرة؛ لأنّ نظريّات المستشرقين أخذت تغزو العقول العربيّة والإسلاميّة، وتطرح الآراء الغربيّة التي تشيد بالحضارة الغربيّة المعاصرة لتقف في وجه الحضارة الإسلاميّة وتمتصّ عقول الشباب أوّلًا بمختلف الوسائل الثقافيّة.

ويتبيّن من دراسة حركة الاستشراق، أنّ مفهومه وخصائصه ومنهجه تدلّ على مواقف عقائديّة وفكريّة معادية للإسلام، ويكتسب أبعادًا خطيرة في جوانبه السياسيّة والثقافيّة منذ نشأته.

لقد تبيّن لمتتبعي الحركة الاستشراقيّة، أنّ الهدف الأساسيّ للعاملين فيه من الغربيّين هو إنكار رسالة الإسلام، والتكذيب للرسول ﷺ، وإثارة الشبهات حول الإسلام، وحول القرآن

---

١. باحث في الدراسات الإسلاميّة.

الكريم ورسالة النبيّ ﷺ لتشكيك المسلمين ومحاولة ردّهم عن الإيمان به بمختلف الوسائل.

وقد عرف الغربيّون أنّ أتباع القرآن الكريم والمؤمنين به يشكّلون الخطر الحقيقيّ على المصالح الغربيّة في كلّ زمان، فكان الاستشراق أوّل المتطوّعين لصدّ الخطّ الذي يزعمون، وكان لا بدّ من الوقوف الجادّ ضدّ القرآن الكريم وسنّة النبيّ محمّد ﷺ بشتّى الوسائل.

بدأت الرؤية الاستشراقيّة تجاه النبيّ ﷺ ودعوته في التكوّن منذ احتكاك المسلمين بالمسيحيّين في الأندلس، ثمّ بدأت هذه الرؤية تتطوّر عبر العصور، غير أنّها كانت تطوّرًا في الشكل من دون أن تكون تطوّرًا في مضمون فهمها للإسلام.

وهذه الرؤية في الأساس سلبيّة وعدائيّة، ولقد حاول بعض المستشرقين تبرير الموقف الغربيّ العدائيّ إزاء الإسلام ونبيّه ﷺ إذ قال وات: «لقد كان الإسلام خلال قرون عديدة العدوّ الأكبر للمسيحيّة، ولم تكن المسيحيّة في الحقيقة على اتّصال مباشر بأيّ دولة أخرى منظّمة توازي الإسلام في القوّة، وقد أخذت الدعاية الكبرى في العصور الوسطى تعمل على إقرار فكرة العدوّ الأكبر في الأذهان، ولقد كانت تلك الدعاية خالية من كلّ موضوعيّة»[١].

لذلك، نرى أنّ المنهج الاستشراقيّ يعتريه الخلل في معالجته لأحداث السيرة النبويّة ومعطياتها، ذلك المنهج الذي استمدّ مقوّماته من المناهج الغربيّة المرتكزة على أسس مغايرة لروح السيرة وواقعها، وأنّهم يريدون إخضاع السيرة النبويّة لمناهج البحث الغربيّة المادّيّة والعلمانيّة وغيرها من المناهج، ليفتح لهم ذلك المجال للتشكيك في السيرة النبويّة ذاتها.

والغريب في أمر المستشرقين أنّهم يشكّكون في صحّة السيرة ويتجاوز بعضهم الشكّ إلى الجحود فلا يرونها مصدرًا تاريخيًّا صحيحًا، وإنّما هي طائفة من الأخبار والأحاديث التي تحتاج إلى التحقيق والبحث العلميّ الدقيق لتمييز صحيحها من منحولها، ولقد ظلّ الشكّ قاعدة صلبة للمستشرقين في تناولهم لأحداث السيرة النبويّة، وقد اتّبع المستشرقون مناهج عديدة في كتابة السيرة النبويّة منها منهج العكس، إذ يأتي المستشرق بأوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها متعمّدًا إلى عكسها[٢].

---

١. وات، محمّد في مكّة، ٣٢٤-٣٢٥.

٢. الشرقاوي، الاستشراق في الفكر الإسلاميّ، ٣٤.

واتّبعوا أيضًا المنهج التحليليّ الذي يقوم على تفتيت الظاهرة الفكريّة إلى مجموعة من العناصر[١]، ثمّ التأليف بينها في حزمة لا متجانسة من الوقائع أو العوامل التي أنشأتها[٢].

أمّا منهج الأثر والتأثّر، فهو عبارة عن إرجاع نشأة الظاهرة إلى مصادر خارجيّة في بيئات ثقافيّة أخرى من دون وضع أيّ منطق سابق لمفهوم الأثر والتأثّر، بمجرّد وجود اتّصال بين بيئتين ثقافيّتين، وظهور تشابه بينهما مع أنّ هذا التشابه قد يكون كذبًا لفظيًّا أو معنويًّا[٣]. أي إرجاع كلّ الحضارة الإسلاميّة إلى أصول يونانيّة.

وكذلك المنهج العلمانيّ، الذي يستبعد وقوع ظواهر دينيّة لا تخضع لقوانين الأجسام المادّيّة[٤]، ومن المناهج التي استخدمها المستشرقون أيضًا منهج النفي والتّشكيك، والاستعانة بالضعيف الشاذّ، وهذا ما هو مستخدم في توجيه ضربات للمسلمين، ويقولون هذا الشيء من كتبكم، ولقد أخذ المستشرقون بالخبر الضعيف الشاذّ في بعض الأحيان، وحكموا بموجبه، واستعانوا بالشاذّ الغريب فقدّموه على المعروف المشهور، واستعانوا بالشاذّ ولو كان متأخّرًا؛ تعمّدوا ذلك لأنّ هذا الشاذّ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشكّ[٥].

واستخدموا منهج البناء والهدم أيضًا، وهو الإطراء والمديح ثمّ الهدم، وهذا ما اعتمد عليه المستشرقون المعاصرون مثل مونتغمري وات وغوستاف وغيرهما[٦].

هذه المناهج بالتأكيد لا تتوافق مع وقائع السيرة النبويّة؛ لأنّ القيم الجادّة للسيرة النبويّة تقتضي منهجًا يقوم على ثلاثة شروط:

أوّلها: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، أو على الأقلّ احترام المصدر الغيبيّ لرسالة النبيّ ﷺ وحقيقة الوحي الذي تقوم عليه.

---

١. حنفي، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، ٨٥.

٢. بركات، الاستشراق والتربية، ١٥٣.

٣. الحاج، الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها على الدراسات الإسلاميّة، ١: ٢٠٤.

٤. النعيم، الاستشراق في السيرة النبويّة، ٣٤٧.

٥. الهواري، المستشرقون والإسلام، ٧٣.

٦. ابن نبي، إنتاج المستشرقين وآثره في الفكر الإسلاميّ، ٢٥.

ثانيها: اعتماد موقف موضوعيّ بغير حكم مسبق يتجاوز كلّ الإسقاطات التي من شأنها أن تعرقل عمليّة الفهم.

ثالثها: الإحاطة بأدوات البحث التاريخيّ بدءًا باللغة وجمع المادّة والانتهاء بطرائق المقارنة والموازنة والنقد والتركيب[١].

إذًا عندما يتناول المستشرق دراسة الواقعة، فإنّه ينطلق من مسلّمات وخلفيّات ثقافيّة آمن بها من قبل، وإنّه يبحث عن مبرّرات ليجادل بها عن مسلّمات وخلفيّات، فهو إذًا لا يبحث عن الحقيقة مجرّدة، ولكنّه يبحث عن مبرّر لشيء آمن به من قبل.

إذًا يمكن القول إنّ نظرة الآخر (أي الغرب) حول الإسلام بصورة عامّة وحول السيرة النبويّة بصور خاصّة هي تلك النظرة التي ينقلونها إلى بلدانهم وشعوبهم، تلك الصورة التي فهمها المستشرقون، معتمدين على المناهج التي ذكرناها سابقًا.

لذلك فإن البحث الحاليّ جاء لتصوير الوضع الغربيّ ولو بالشيء اليسير إزاء الإسلام والمسلمين، وبالخصوص تجاه الرسول الكريم ﷺ.

قُسّم البحث إلى مباحث فرعيّة، المبحث الأوّل خُصّص لكتابة نبذة مختصرة عن تطوّر الاستشراق البريطانيّ لمعرفة سمات كتاباتهم وأشكالها في الموضوعات المختلفة وكيفيّة تعاملهم مع القضايا الإسلاميّة، وأساليبهم المتنوّعة من الهجوم والتشويه الواضح إلى محاولة الدسّ والتّشكيك وما سواها من الأساليب التي تحقّق غايتها النهائيّة، وهي تشويه التاريخ الإسلاميّ.

أمّا بقية المباحث التي يمثّلها هذا البحث، فهي تتضمّن مواقف بعض المستشرقين البريطانيّين من بعض القضايا الإسلاميّة وكيفيّة تعاملهم معها، وما تضمّنته تلك الكتابات من تشويه متعمَّد للحقائق، محاولين في الوقت نفسه الردّ على تلك الادّعاءات، ومن المواضيع أو القضايا الإسلاميّة التي خُصّصت لها مباحث منفردة موضوع زواج النبيّ ﷺ من السيِّدة خديجة عليها السلام، وموضوع الوحي، وتعدّد زوجات النبيّ ﷺ، وما سواها من المواضيع المهمّة.

---

١. الساموك، الوجيز في علم الاستشراق، ٢٠-٢١.

أوّلًا: نبذة مختصرة عن تطوّر الاستشراق البريطانيّ

بدأت الدراسات الاستشراقيّة في بريطانيا منذ وقت مبكر، فكان هناك عدد كبير من علماء القرون الوسطى الذين اهتمّوا بدراسة اللغة العربيّة وآدابها[١].

اتّجه طلبة العلم من الإنكليز إلى أسبانيا وصقليّة لينهلوا من مناهل العلم العربيّة، ولينشروا ما جمعوه من معلومات، ممّا ساعد على تطوّر الدراسات العربيّة وأدّى ذلك إلى ظهور من نسمّيهم بالمستشرقين الذين اهتمّوا بالدراسات العربيّة، ممّا أسهم في زيادة استيعابهم بالنشاط الفكريّ العربيّ الإسلاميّ، ومن ثَمَّ أصبحت هناك جدّيّة بتلك الدراسات التي أثمرت فيما بعد في حقل الاستشراق، من جمع وتحقيق وتأليف في المجالات المختلفة[٢].

تميّزت الدراسات الاستشراقيّة الأولى بحقدها وعدم علميّتها؛ إذ كانت تهتم بالتبشير بالدرجة الأولى؛ لذلك أساءت إلى تاريخ العرب والمسلمين وحضارتهم[٣]، فظهر التاريخ الإسلاميّ في كتابات المستشرقين في تلك الحقبة الزمنيّة مشوَّهًا، بعد أن فسّرها المستشرقون تفسيرًا خاطئًا.

ومع ازدياد أطماع بريطانيا في الشرق العربيّ، ازداد اهتمامها بالتراث العربيّ الإسلاميّ، حتّى ربط بعضهم بين الاستشراق والاستعمار، فاعتبروا الاستشراق البريطانيّ أداة كبيرة للاستعمار، وأنّه أسهم في نشر الفرقة بين العرب من خلال تركيزه على نشر الدراسات الطائفيّة وتشويه تاريخ العرب المسلمين، وفي الحقيقة إنّ جزءًا كبيرًا من الاستشراق البريطانيّ في تلك الحقبة كان كذلك رغم وجود بعض الدراسات الجيّدة والمنصفة من قبل بعض المستشرقين البريطانيّين[٤].

بدأت حركة الاستشراق في بريطانيا تأخذ صورًا عمليّة ملموسة في القرن السابع عشر الميلاديّ، إذ استُحدث منصب للأستاذيّة في اللغة العربيّة في الجامعتين المعروفتين كمبرج

---

١. الساموك، مناهج المستشرقين، ٢٩.

٢. قاشا، المستشرقون الإنكليز، ١٧.

٣. ادريس، «مناهج المستشرقين»، ٢٩؛ غراب، الاستشراق وآل سعود، ٣٨، ١٦.

٤. ادريس، «مناهج المستشرقين»، ٢٩.

وأكسفورد[١]، فقام أساتذة إنكليز بتدريس اللغة العربيّة لعدد كبير من الطلبة الذين أقبلوا على دراستها بلهفة ورغبة، وطُبعت الكتب العربيّة في إنكلترا لأوّل مرّة[٢]، وأصبحت بين أيدي الطلبة الذين اهتموا بدراسة الآداب والعلوم العربيّة الإسلاميّة، ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغة العربيّة[٣].

أمّا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديّين، فقد بدأت تظهر على كتابات المستشرقين البريطانيّين سمات مختلفة نسبيًّا عن القرون السابقة، فحدث تطوّر لدى هؤلاء المستشرقين، إذ بدأوا بالتعامل مع التاريخ الإسلاميّ بشيء من الواقعيّة والإنصاف لدى عدد كبير منهم، وتجاوزوا التهجّم والتّشويه المتعمّد للتاريخ الإسلاميّ[٤]، لهذا أُلّفت أعداد كبيرة من المؤلّفات البريطانيّة التي درست التاريخ الإسلاميّ بشكل مقبول ومنصف، لا سيّما في مجال دراسة السيرة النبويّة التي تعرّضت للتّشويه في الدراسات السابقة.

ويبدو أنّ ذلك التّعامل المنصف مع التاريخ الإسلاميّ من قبل المستشرقين البريطانيّين كان جزءًا من النهضة الاستشراقيّة الأوروبيّة التي حدثت في تلك الحقبة[٥]، والتي أثمرت إنشاءَ العديد من المراكز والمدارس المتخصّصة بالدراسات الإسلاميّة في العديد من العواصم الأوروبيّة في البلدان العربيّة التي وقعت تحت الاستعمار الأوروبيّ في تلك الحقبة[٦]، ومع ذلك لم تخلُ كتابات المستشرقين البريطانيّين من التعرّض السيّئ للتاريخ الإسلاميّ، وإنّ تغيّر أسلوب بعضهم، من التهجّم الواضح إلى الدسّ والتّشكيك والتخيّل البعيد عن الواقع عند تحدّثهم عن التاريخ الإسلاميّ.

---

١. قاشا، المستشرقون الإنكليز، ١٧.

٢. م. ن، ١٧.

٣. م. ن.

٤. اللبان، المستشرقون والإسلام، ١٠.

٥. الغزالي، تطوّر الاستشراق البريطانيّ كتابة السير النبويّة الشريفة، ٦٣–٦٥.

٦. سعيد، الاستشراق، ٧٣.

ثانيًا: موضوعات تاريخيّة إسلاميّة تعرّضت للتشويه من بعض المستشرقين البريطانيّين

زواج النبيّ ﷺ من السيّدة خديجة عليها السلام

استغلّ بعض المستشرقين البريطانيّين روايات مدسوسة في التاريخ الإسلاميّ، فبنوا عليها تخيّلاتهم وتصوّراتهم، وأضافوا ما أضافوه، ومع الأسف الشديد فإنّ مصادرنا الإسلاميّة فيها كثير من الروايات غير المقبولة التي أفاد منها المستشرقون بشكل كبير، وأقصد بالمستشرقين أولئك الذين يتقصّدون الإساءة إلى التاريخ الإسلاميّ.

وقد أثيرت شبهات من قبل بعض الرواة حول زواج الرسول ﷺ من السيّدة خديجة عليها السلام بأنّه زواج أقيم بالخديعة وإنّ السيّدة خديجة عليها السلام قد تحايلت لتحقيق ذلك الزواج، وكأنّهم يوحون بذلك إلى أنّ رسول الله ﷺ لم يكن كفوًا لها، وإن لم يقصدوا ذلك بالطبع، بل القصد إنّ قلّة مال الرسول ﷺ كانت عائقًا أمام هذا الزواج، فلجأت السيّدة خديجة عليها السلام إلى الخداع لإتمام الزواج.

ثمّ تطرّقت بعض الروايات[1] إلى أمر غاية في العجب، إذ أوردت هذه الروايات أنّها سقت أباها أو عمّها خمرًا حتّى يوافق على أمر الزواج، فيما ذهبت روايات أخرى إلى أنّه كان ثملًا عندما كلّمته في الأمر، وهناك بعض الروايات لم تذكر هذا الأمر.

ولو أتينا إلى تفحّص هذه الروايات، نجد أنّ هناك إصرارًا على مسألة الخمر فيها، لدرجة غير معقولة، فنسبت تارة إلى والد السيّدة خديجة، وإلى عمّها تارة أخرى، وهذا يجعلنا في شكّ من هذه المسألة، وأنّها وضعت للإساءة إلى مقام الرسول ﷺ والسيّدة خديجة عليها السلام، وسنعرض بعضًا من هذه الروايات:

ذكر الزهريّ أنّ أباها كان ثملًا من الشراب، «فانطلقت إلى أبيها خويلد بن أسد، وهو ثمل من الشراب، فقالت: هذا ابن أخيك محمّد يخطب خديجة وقد رضيت»، وذكر محمّد بن الحسن بن زبالة رواية عن الليث بن سعد إنّها هي التي سقت أباها خمرًا «أرسلت خديجة إلى عمّها عمرو

---

١. الصنعانيّ، المصنف، ٥: ٣٠٠؛ البيهقي، دلائل النبوّة، ١: ٩٠-٩١؛ السهيلي، الروض الآنف، ١: ٢١٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٣٢؛ الهيثميّ، مجمع الزوائد، ٩: ٢٢٠؛ المقريزي، أمتاع الاسماع، ١٠: ١-١١.

بن أسد فصنعت له طعامًا وشرابًا، حتى إذا أخذ الشراب فيه، أرسلت إلى رسول الله ﷺ إن أقبل أنت ونفر من أهل بيتك فليخطبوا إليه فإنّه سيزوّجك»، كما أورد ابن سعد رواية عن خالد بن خداش، في كون أبيها سُقي الخمر من دون تحديد الشخص الذي سقاه «وأنّهم تواطؤوا على أن يتزوّجها رسول الله ﷺ، وأبو خديجة سقي من الخمر حتى أخذت فيه، ثم دعا محمّدًا فزوّجه»، وروى حماد بن سلمة فيما يحسبه عن ابن عبّاس «فصنعت طعامًا وشرابًا ودعت أباها ونفرًا من قريش فطعموا وشربوا حتّى ثملوا، فقالت خديجة: إنّ محمّد بن عبد الله يخطبني فزوّجني إيّاه، فزوّجها فخلّقته وألبسته»[١].

من خلال ذلك وجّه المستشرقون التهم للرسول ﷺ وزوجته الطاهرة، فقال المستشرق الإنكليزيّ بودلي: «لو أنّ محمّدًا كان من علْيَة القوم الأربعمئة، ولو أنّه كان من أعضاء الندوة الأغنياء أو بني المطلب، الذين عاشوا حول الكعبة»، ثم يُضيف إلى ذلك الطريقة التي أقنعت السيّدة خديجة عليها السلام عمّها بالأمر فقال: «وقامت خديجة في نفس الوقت تمسح على رأس عمّها بالزعفران والعنبر، ودوّت في أركان بيت خديجة أصوات التهليل، وصار زواج محمّد من خديجة أمرًا واقعًا، وما كانت خديجة بالمندفعة في هذه الفرصة السانحة، فقد كانت تعلم فعل الخمر في النفوس، وحين كان يربت على كتف صاحبه ويتقارعون الكؤوس ويتفاخرون، جاء من يكتب العقد، وفي هذا الجوّ الذي يغلب عليه الصفاء اتّفق على الصداق، وتمّ عقد القرآن وانتهى الأمر، وصار محمّد يعدّ بعلًا لخديجة بحسب شريعة مكّة»[٢]، كما حاول المستشرق الإنجليزيّ مرجليوث، تفسير سيرة الرسول ﷺ تفسيرًا ماديًّا، فزعم أنّ الرسول ﷺ تزوّج خديجة عليها السلام لأجل أموالها وثرواتها[٣].

يبدو أنّ بعض الروايات الموجودة في بعض مصادرنا الإسلاميّة قد أعطت المبرّر لبعض

١. بودلي، حياة محمّد الرسول، ٤٦.

٢. م. ن، ٣٥.

٣. الصدر، محمّد في القرآن، ١٣٠؛ الجندي، الفكر الإسلاميّ الثقافيّ العربيّة في مواجهة تحدّيات الاستشراق والتبشير والغزو الفكريّ، ١٤٥.

المستشرقين ليكتبوا ما شاؤوا، فصوّروا الرسول ﷺ وكأنّه من عائلة مغمورة في مكّة، وكان شخصًا لا قيمة له، والردّ على ذلك التصوّر والكلام لدى المستشرق بودلي قد يطول إذا ما تحدّثنا عن مكانة الرسول ﷺ، إلّا أنّنا نكتفي بالقول إنّ بني هاشم كانوا الأكثر شرفًا ونسبًا من قريش، وإنّ التفكير السليم ورجاحة عقل السيّدة خديجة عليها السلام هو الذي دفعها إلى طلب الزواج من النبيّ ﷺ الذي وافق على هذا الطلب، لا سيّما أنّها سمعت كثيرًا عن أخلاقه وأمانته وحسن سيرته؛ لأنّ التاريخ يشهد بأنّ خديجة عليها السلام هي التي عرضت الزواج على النبيّ ﷺ، وذلك بعد إنّ رأت أمانته وصدقه وإخلاصه، وقد تقدّم لخطبتها الملوك والأشراف والأثرياء، لما عُرفت به من الشرف والنسب الرفيع والثروة، وبذلوا لها كلّ الأموال مهرًا؛ لأنها لم تجد في أحدهم كفئًا لها، ورضيت راغبة بالزواج من النبيّ ﷺ الفقير اليتيم، لم ترفض أولئك وترضى بمحمّد ﷺ فحسب، بل تقدّمت بشوق واندفاع لتقترح على الرسول ﷺ الزواج منه والاقتران به[1]، فوجدت خديجة عليها السلام فيه الشخص الكامل كما وصفه الأديب[2]:

وأحسنُ منك لم ترَ قطُّ عيني وأجملُ منك لمْ تلد النساءُ
خُلقتَ مبرءًا منْ كلِّ عيبٍ كأنّك قدْ خلقتَ كما تشاءُ

وإنّ الآثار تدلّ على الأخلاق الكريمة التي مدحها سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، ٤)، فبعثت إلى محمّد ﷺ، فقالت له: «يا ابن العم، قد رغبت فيك... لشرفك في قومك ووسطك فيهم، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثمّ عرضت عليه نفسها»[3]. هذا الاعتراف وارد في كثيرٍ من المصادر التاريخيّة فأين زعمك يا مرجليوث؟

---

١. الكلينيّ، الكافي، ٥: ٣٧٥؛ ابن أبي جمهور، عوالي اللئالي العزيزيّة في الأحاديث الدينيّة، ٣: ٢٩٩؛ المجلسيّ، بحارالأنوار، ١٦: ١٤.

٢. الشربيني، مغنى المحتاج، ٧؛ الآلوسي، تفسير الآلوسي، ١٤.

٣. الدولابي، الذرية النبويّة الطاهرة، ٤٨؛ ابن حبان، الثقات، ١: ٤٦؛ ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ١: ١٦، ابن حجر العسقلانيّ، الإصابة في تمييز الصحابة، ٨: ١٠٢؛ المجلسيّ، بحار الأنوار، ١٦: ٩.

موقفهم من نزول الوحي

جرت عادة المستشرقين على التّشكيك بصحّة رسالة النبيّ ﷺ ومصدرها الإلهيّ، فجمهورهم ينكر أن يكون الرسول نبيًّا موحى إليه من عند الله ﷻ، ويتخبّطون في تفسير الوحي الذي تلقّاه النبيّ ﷺ، فمن المستشرقين من يرجع ذلك إلى صرع كان ينتاب النبيّ ﷺ حينًا بعد حين، ومنهم من يرجعه إلى تخيّلات كانت تملأ ذهن النبيّ ﷺ، ومنهم من يفسّرها بمرض نفسيّ، وهكذا، كأنّ الله ﷻ لم يرسل نبيًّا قبله حتى يصعب عليهم تفسير ظاهرة الوحي، ولما كانوا كلّهم ما بين يهود ومسيحيّين يعترفون بأنبياء التوراة، وهم كانوا كما تعرفون أقلّ شأنًا من الرسول محمّد ﷺ في التاريخ والتأثير والمبادئ التي نادى بها[1].

والوحي شرعًا: هو التعليم الصادر من الله تعالى لمن اصطفاه من عباده كلّ ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرّيّة خفيّة غير معتادة للبشر، ويكون على أنواع شتّى[2]، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ (الكهف: ١١٠)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ (الشورى: ٥١)، وحادثة نزول الوحي على الرسول الأمين ﷺ أوردتها المصادر الإسلاميّة، وتضمّنت تلك المصادر بعض الروايات غير المقبولة، والتي استغلّها بعض المستشرقين، فكتبوا ما شاؤوا من الافتراضات، وحاولوا إنكار حادثة نزول الوحي، وفسّروا تلك الحادثة تفسيرات خاطئة، وروايات نزول الوحي التي ذكرتها المصادر الإسلاميّة جاءت بالشكل الآتي:

وذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة إنّها حدّثته: «إنّ أوّل ما بُدئ به رسول الله ﷺ من النبوّة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة: لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلّا جاءت كفلق الصبح، وقالت: وحبّب إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو

١. برتو، الرؤية الاستشراقية تجاه النبيّ، ٧.

٢. الصدر، محمّد في القرآن، ١٣٠.

وحده[١]، ولمّا بلغ الرسول ﷺ أربعين سنة نزل عليه الوحي، وكان مبعثه في شهر ربيع الأوّل وقيل في رمضان»[٢].

كما جاء في روايات المصادر الإسلاميّة عن رسول الله ﷺ قوله: «جاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: إقرأ قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغتّني به حتّى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني فقال: إقرأ قال: ما أقرأ قال: فغتّني به حتّى ظننت أنّه الموت، فقال: إقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتّني به حتّى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني فقال: إقرأ، قال: قلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلّا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق: ١-٥)، قال فقرأتها ثمّ أنهى فانصرف عنّي، وهببت من نومي، فكأنّما كتبت في قلبي كتابًا. قال: فخرجت حتّى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمّد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمّد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدّم وما أتأخّر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر في ناحية منها إلّا رأيته كذلك، فما زلت واقفًا ما أتقدّم أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكّة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثمّ انصرف عنّي»[٣].

تلك هي رواية المصادر الإسلاميّة على نزول الوحي، والمستشرقون تعاملوا مع تلك الرواية بحذر، فإن أكدّوها فهذا يعني صدق نبوّة محمّد ﷺ، وهذا ما لا يريدونه؛ لذلك نجدهم يأخذون من تلك الرواية ما يفيدهم من تحقيق غايتهم الكبرى، وهي إنكار نبوّة محمّد ﷺ، ويحذفون من الرواية كلّ ما هو عكس ذلك، ثمّ يعطون افتراضات واستنتاجات مختلفة ليصلوا في النهاية أنّ لا يوجد وحي ولا دين جديد جاء بعد الديانات السابقة.

---

١. ابن هشام، السيرة النبويّة، ١٨٨.

٢. اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبي، ٢: ١٥.

٣. ابن هشام، السيرة النبويّة، ١٩٠-١٩١.

وقد أشـار المسـتشرقون إلى غار حراء الـذي كان النبيّ ﷺ يذهب إليـه يتعبّد في الليالي في شـهر رمضان، حتى جاء جبرائيل عليه السلام بالقرآن الكريم عن الله تعالى كما هو معروف، فقد ادّعى المستشرقون أنّ دخول الرسول ﷺ الغار كان لغرض الاستراحة والتفكير والتأمّل في الملكوت، وهروبًـا من جـوّ مكّة الحارق والصاخـب، وأنّ تحنّثهُ في الغار على هذا النحـو كان مجرّد عادة انتقلـت إليه إمّا بطريقة مباشرة من اليهود والنصارى أو غـير مباشرة عن طريق الحنفاء الذين أخذوا بدورهم عنهم[١].

قال بعض المستشرقين من الإنكليز: «إنّ محمّدًا لم يكن يؤمن بما كان يوحى إليه، وإنّه لم يتلقّ الوحي من مصدر خارجيّ عنه، بل إنّه ألّف الآيات عن قصد، ثم أعلنها للناس بصورة خدعهم بها، وجعلهم يتّبعونه، فضمن لنفسه بذلك من يرضي طموحه»[٢]...

ثـمّ زاد وات على ذلك القول، فزعم أنّ محمّـدًا ﷺ كان مخطئًا فيما يراه، وإن كان صادقًا في قول ما اعتقده، فيقول: «القول إنّ محمّدًا كان صادقًا لا يعني إنّ القرآن وحي حقّ وإنّه من صنع الله؛ إذ يمكـن أن نعتقد بدون تناقض أنّ محمّـدًا كان مقتنعًا بأنّ الوحي ينزل عليه من عند الله، وأن نؤمن في الوقت نفسه بأنّه كان مخطئًا»[٣].

يقول مونتغمري وات مشـكّكًا في الوحي: «من المحتمل أنّ كلمات أتت رسول الله لم تكن عبارة خارجيّة، وربما لم تكن حتّى عبارة تخيليّة، وإنّما كانت عبارة عقليّة، أي: أنّه لم يسمع بأذنه ولا حتّى تخيّل نفسـه يسـمع، ولكن هذه الكلمات صياغة لخطاب جاءهُ من غير كلمات، وربما كانت هذه الصياغة متأخّرة جدًّا عن الرؤيا الحقيقيّة»[٤].

نفهم من كلام وات إنّ هذه الكلمات «أنت رسول الله» لم تأتِ للرسول ﷺ من الخارج، فهي إذن ليست من الله ﷻ، ولا من جبرائيل عليه السلام، وإنّما جاءته من داخل نفسه، وحتّى حين جاءت من نفسه لم تأته في صورة كلمات تخيّل أنّه سمعها، وإنّما هي فكرة أحسّ بها من غير كلمات.

---

١. وات، محمّد في المدينة، ٤٩٥.

٢. م. ن، ٤٩٦.

٣. م. ن، ٤٩٧.

٤. م. ن، ٤٣.

ويقــول وات أيضًا: «من الطبيعيّ أن نفــترض إنّ محمّدًا كان يتذكّر رؤياه الأولى في أوقات اليأس، ربما انقدحت ذكراها في عقله في لحظات حرجة، فعزا ذلك إلى عامل علويّ»[١].

وقد ذهب المستشرقون في التشكيك أبعد من ذلك، إذ إنّ وات قد شكّك في القرآن الكريم، وعزاه بأنّه من تأليف الرسول ﷺ، بعد أن أنكر فكرة الوحي، فنحن نعرف إنّ الله سبحانه وتعالى أنــزل أوّل ســورة من القرآن الكريم على الرســول الكريم ﷺ في غار حراء هي ســورة العلق، ويقــول وات في ذلــك: «إنّ محمّدًا لم يكن يقرأ ولا يكتب، ولقــد كان كثير من المكّيّين يقرؤون ويكتبــون، ولذلك يفــترض إنّ تاجرًا ناجحًا كمحمّد، لا بدّ أن يكون قد عرف شــيئًا من هذه الفنون»[٢].

نلاحظ هنا أنّه وإن أراد أن يوصل فهمه الخاص من إنّ النبيّ ﷺ رأى شيئًا فاعتقده الوحي وأبلغ الناس، بمعنى أنّه صوّر الرسول ﷺ بالرجل الذي يرى أشياء لا وجود لها، فكان الوحي من ضمن تلك الأشياء التي تصوّر النبيّ ﷺ أنّه رآها.

يــردّ أحد الباحثين على ادّعاءات (وات)، فيقول: «وات لا يريد إذًا أن يقول إنّ محمّدًا رأى جبريــل؛ لأنّ هذا يجعلها رؤية غير تاريخيّة ماذا يعني هذا؟ أيعني إنّ (وات) لا يعدّ من التاريخ إلّا ما كان أمرًا حسّيًّا؟ ألم يقل لنا في بيان منهجه أنّه مؤمن وليس مادّيًا؟ فما الذي حدث الآن؟ الواقع إنّ وات ككثير من غيره من المستشرقين لا يتحدّث عن الإسلام وينتقده إلّا وهو ملتحف برداء العلمانيّة والمادّيّة»[٣].

ثمّ يحاول الباحث نفسه تفسير إصرار وات على اعتقاد النبيّ ﷺ على أنّ ما رآه هو الله فيقول: «قد تقول فلماذا إذن اختاره أن يكون ما رآه محمّد هو الله، فهذا أكثر بعدًا في نظر العلمانيّ؟ وأقول اختاره لسبب جوهريّ هو التّشكيك في أنّ القرآن وحي من الله، وذلك بعدّة وسائل منها:

أ. إنّ كل عاقل يفهم أنّ الله تعالى لا يرى عيانًا في هذه الحياة الدنيا، فإذا كان الذي رآه محمّد

---

١. م. ن، ٤٦.

٢. م. ن، ٤٧.

٣. إدريس، «منهج مونتغمري وات دراسة نبوّة محمّد ﷺ»: ٢١٩.

هو الله، فهذا يجعل رؤياه من قبيل الهلوسة والوهم والخيال.

ب. إنّ محمّـدًا يكـون متناقضًا في كلامه، فهو يقول أوّلًا أنّـه رأى الله، ثمّ يقول أخيرًا: «لا تدركه الأبصار».

ت. إنّ محمّدًا عندما لاحظ خطأه اعتذر عنه بإضافة أنّه (ما كذب الفؤاد ما رأى).

ث. إنّ محمّدًا لم يكن يعرف أنّ الله لا يرى وإنّما تعلم ذلك من أهل الكتاب فيما بعد؛ ولذلك غير رأيه وقال إنّه رأى جبريل»[١]...

ويرد عليه الدكتور حسـن الحكيم قائلًا: «إنّ المستشرق (وات) قد أصدر رأيه هذا اعتمادًا عـلى الطبريّ في بعـض روايته عن جابر بن عبد الله حول سـورة المدّثـر؛ إذ يقول محمّدﷺ في الرواية: سمعت صوتًا يناديني، فنظرت حولي، فلم أرَ أحدًا، فرفعت رأسي، فإذا هو جالس على العرش، ويبدو إنّ المستشرق وات قد أغفل ما ورد في القرآن الكريم لا تدركه الأبصار؛ لأنّه لو أقرّ بهذه الحقيقة لاعتقد إنّ القرآن إلهيّ، فهو من جهة أراد إبراز التناقض في مسألة رؤية الله»[٢].

رغم ذلك فإنّ المسـتشرق وات وغيره من المسـتشرقين يحاولون دومًا إنكار نزول الوحي أو يصـوّرون ما رآه النبيّﷺ هو وحي منزّل من قبـل الله تعالى، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: «إذا كان الوحي فعلًا متميّزًا فهو صادر عن فاعل مريد، وهذا الفاعل المريد هو الله تعالى وليس الإلهام والكشف كذلك»[٣].

ويضيـف قائلًا: «إنّ حالات الكشـف والإلهـام والإيحاء حالات لاشـعوريّة ولاإراديّة. والوحي ظاهـرة شعوريّـة تتمّ بالوعي والإدراك التامّين، الـوحي بالمعنى المشار إليه يختصّ بالأنبياء وليس الإلهام أو الكشف كذلك، فهما عامّان وشائعان بين الناس»[٤].

وقـد اعتمـد وات في كلامـه هذا بأنّ الرسـولﷺ لا يقـرأ ولا يكتب عـلى قوله ﷺ: «ما

---

١. م. ن، ١: ٢١٩.

٢. المستشرقون، دراساتهم للسيرة النبويّة، ١٤٨-١٤٩.

٣. الصغير، الوعي والمستشرقون، ٩٧.

٤. م. ن، ٩٧.

أنــا بقــارئ»، ولكن معناها الحقيقيّ هو مــا أقرأ وماذا أقرأ؟ لأنّ هذا الســؤال الذي صدر من الرســول ﷺ بمعنى هل المقصود بالقراءة هنا قــراءة شيء مكتوب أم المقصود بها تزويد كلمات وتلاوتها من غير نظر في شيء مكتوب؟

إذ إنّ كلام الرسول ﷺ في بعض الروايات «ما أنا بقارئ» أي ماذا أقرأ، أو ما أقرأ[١]؟، وكل ذلك يؤيّده إن (ما) استفهاميّة[٢].

وقد أصّر المستشرقون على أنّ الرسول ﷺ أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، وإنّما جاء بالقرآن الكريم نتيجة ما تعلّمه وتأثّر به من اليهود والنصارى، ونلاحظ أنّ المستشرقين يحاولون جاهدين إنكار فكرة الوحي، بوصفه الصلة الوثيقة بينه ﷺ وبين الله ﷻ، ومن ثمَّ يمكنهم القول إنّ الرسول ﷺ لا يأتي بالكلام من مصدر الوحي وإنّما هي هلوسة، إذ يقول المستشرق وات في ذلك: «قد يكون معنى (إقرأ) هنا، اتلُ من ذاكرتك، أي: ممّا وقع في ذاكرته بطريقة عُلويّة»[٣].

وإذا ثبت عندهم إنّ الرســول ﷺ لا يعرف القراءة والكتابــة، لثبت أنّ القرآن ليس وحيًا، وقد استشهد وات بقوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ (النساء: ٨٢)؛ لذا يقرّر وات بأنّ تناسق القرآن دليل ضروريّ؛ لأنّ الاختلاف لو وُجد لدلّ على أنّه من عند غير الله ﷻ.

ونلاحظ هنا إنّ وات اســتخدم في تحليل هذه الآية منهج العكس الذي أشرنا إليه ســابقًا، وهــذا ديدن بعض المســتشرقين الذين يحلّلون النصــوص على وفق أهوائهــم إذا تعارض مع أفكارهم ومصلحتهم.

فقد اتُّهم الرســول الكريم ﷺ بأنّه أُمّي، وقد وردت هــذه الكلمة في القرآن الكريم مرّتين، ففي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُــولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...**﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وقوله تعالى: ﴿...

---

١. ابن هشام، السيرة النبويّة، ١: ١٥٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٦٣: ١٣؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ١: ١١٦.

٢. الصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ٢: ٢٣٩.

٣. وات، محمّد في مكة، ٤٧.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وإنّ خير دليل على أنّ الرسول ﷺ كان يقرأ ويكتب، هو قول الإمام أبي جعفر محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام؛ إذ سأله جعفر بن محمّد الصوفيّ قال: يا ابن رسول الله، لمَ سُمّي النبيّ ﷺ الأمّي؟ فقال عليه السلام: ما تقول الناس؟ قلت: يزعمون أنّهُ إنما سمّي الأمّيّ لأنّه لم يُحسن أن يكتب، فقال عليه السلام: «كذبوا عليهم لعنة الله، أنّى ذلك؟! والله يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فكيف كان يعلّمهم ما لا يحسن؟

والله، لقد كان رسول الله ﷺ يقرأ ويكتب باثنين وسبعين، أو قال: ثلاثة وسبعين لسانًا، وإنّما سُمّي الأمّيّ؛ لأنّه كان من أهل مكّة، ومكّة من أمهات القرى، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فأمّ القرى مكّة، فقيل: أمّيّ لذلك»[١].

وهنالك أحاديث حول هذا الموضوع تختلف فيما إنّ الرسول ﷺ كان يقرأ ولا يكتب، فيقول المجلسيّ في ذلك: «يمكن الجمع بين هذه الأخبار بوجهين: الأوّل أنّه ﷺ كان يقدر على الكتابة، ولكن كان لا يكتب لضرب من المصلحة، الثاني: أن نحمل أخبار عدم الكتابة والقراءة على عدم تعلّمها من البشر، وسائر الأخبار على أنّه كان يقدر عليها بالإعجاز، وكيف لا يعلم من كان عالمًا بعلوم الأوّلين والآخرين، إنّ هذه النقوش موضوعة لهذه الحروف، ومن كان يقدر بإقدار الله تعالى لهُ على شقّ القمر وأكبر منهُ كيف لا يقدر على نقش الحروف والكلمات على الصحائف والألواح؟»[٢].

ويقول ابن منظور: «... إنّ الرسول ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظومًا بالنظم الذي أنزل عليه، فلم يغيّره ولم يبدّل ألفاظه، وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثمّ أعادها زاد فيها ونقص، فحفظه الله عزّ وجلّ على نبيّه كما أنزله»[٣].

وأيضًا ففي الحادثة المشهورة قبيل وفاة الرسول ﷺ ورد أنّه قال: «آتوني بدواة وكتف أكتب

١. المجلسي، بحار الأنوار، ١٦: ١٣٣.
٢. م. ن، ١٣٣-١٣٤.
٣. ابن منظور، لسان العرب، ١٢: ٣٤.

لكم كتابًا لن تضلّوا بعده أبدًا»[١]، وهذا دليل على أنّ الرسول ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة، وهذا الذي يريد وات الوصول إليه من كلّ تلك المحاولات والتحريفات أنّه يريد أن يقول إنّ القرآن ليس كلامًا أتى لمحمّد من الله أو بواسطة ملك، وإنّما هو شيء نابع من نفسه وتفكيره وعقله.

وقد ورد لفظ الوحي ومشتقّاته في القرآن الكريم (٧٨) مرّة[٢]، ولكنّ المستشرقين ينكرون ذلك، ويفسّرونه بشتّى التفاسير، فإنّ دراسات المستشرقين ومواقفهم من الوحي تأثّرت بالفكرة التي رسّختها الدراسات السابقة، من الطعن في الإسلام، واختلاق العيوب للنبيّ ﷺ وإرضاء للشعوب الأوروبيّة التي كان يرضيها أن تسمع الشتائم عنه، فوصفوا النبيّ ﷺ بأنّه ساحر وخدّاع وشهوانيّ، وأنّه عدوّ للمسيحيّة، منقادين إلى ذلك بمحض خيالهم، من دون الرجوع إلى مصادر مكتوبة[٣].

وحتّى يتحقّق لهم هذا الإنكار للوحي أصبحوا يردّدون إنّ ما جاء به محمّد ﷺ ما هو إلّا إبداع ذاتيّ، أو إشراق روحيّ[٤].

إنّ غالبيّتهم ينكرون أن يكون محمّد ﷺ نبيًّا أوحى الله إليه كتابه[٥]، بل تضاربت تفسيراتهم لهذه القضيّة الغيبيّة من أجل رفض حدوث الوحي، وبثّ الشبهات حوله، زاعمين بأنّ الوحي والقرآن ما هو إلّا مشروع محمّديّ، أو عمل من أعمال الشعوذة.

أقول: هناك سؤال نطرحه على المستشرقين وهو: كيف أتى محمّد بهذا القرآن من عند نفسه، وأنتم تقرّون أنّ أسلوب القرآن في الذروة من البلاغة، والفصاحة، وعلوّ الأفكار، وقوّة التعبير، فلا يوجد فيه لفظ ركيك، ولا فكر سخيف، فضلًا عن تناوله أكثر القضايا من العلوم والمعارف المختلفة في الماضي والحاضر والمستقبل؟

---

١. مسلم، صحيح مسلم، ٥: ٧٦؛ الحاكم النيسابوري، مستدرك على الصحيحين، ٣: ٤٧٧؛ أبو ريه، أضواء على السنة المحمّدية، ٥٥.

٢. عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ٧٤.

٣. شلبي، الوحي المحمّدي وآراء المستشرقين، ١٩٧.

٤. زكريا، المستشرقون والإسلام، ١٣٥.

٥. مرعي، الأدلّة على صدق النبوة المحمّديّة ورد الشبهات عنها، ٤٥٢.

كان الجواب من قبل المستشرقين على هذا السؤال هو: إنّ محمّدًا بعبقريّته الفذّة، وفطرته السليمة، كان المصدر الوحيد للقرآن، جاء به من عند نفسه، بطريق الإلهام، أو من تأثير البيئة التي نشأ فيها، وليس وحيًا إلهيًّا من عند الله، اعتمادًا على القول بعبقريّته وصفاء نفسه[١].

يقول عوض إبراهيم: «لو كان محمّد هو مؤلّف القرآن بما فيه من مبادئ وأفكار لماذا كان ذلك بعد (٤٠) سنة من عمره، أكان يسكت طوال الأربعين سنة الأولى من حياته عن الدعوة ثمّ ينشط فجأة بعد الأربعين؟ إنّ هذا لو صحّ كان شاذًّا غريبًا»[٢]، فكيف وهو كلام لا أساس له من الصحّة؟

وهنا ردّ على المستشرقين حول افترائهم على الوحي من قبل المستشرق إدوارد مونتيه: «كان محمّد نبيًّا بالمعنى الذي يعرفه العبرانيّون القدماء، ولقد كان يدافع عن عقيدة خالصة لا صلة لها بالوثنيّة»[٣].

وقال مونتيه: «كان محمّد نبيًّا صادقًا، كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحَى إليه»[٤].

وقال المستشرق الإنجليزي لايتنر: «بقدر ما أعرف من دين اليهود والنصارى من أقوال بأنّ ما علّمه محمّد عليه السلام ليس اقتباسًا، بل قد أوحي إليه من ربّه، ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنّه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم، وأنّي بكل احترام وخشوع أقول إذا كان تضحية المصالح الذاتيّة وأمانة المقصد... من العلامات الظاهرة الدالّة على نبوّة محمّد عليه السلام، أنّه قد أوحى إليه»[٥].

وبعد استعراض هذه الآراء ومناقشتها يتبيّن اتّفاق غالبيّة المستشرقين على هدف واحد، هو الوصول إلى ما يؤيّد اعتقادهم بأنّ الإسلام دين بشريّ من صنع عبقريّة فرديّة أو ظروف اجتماعيّة واقتصاديّة، كلّ ذلك لرفض حدوث الوحي وبثّ الشبهات حوله.

---

١. نذير، الرسول في كتابات المستشرقين، ١١.

٢. عوض، المستشرقون والقرآن، ١٨٤.

٣. ماضي، الوحي القرآني في المنظور الاستشراقيّ ونقده، ١٤٩.

٤. م. ن، ١٥٠.

٥. م. ن.

موقفهم من القرآن الكريم

شكّ بعض المستشرقين البريطانيّين في قدسيّة القرآن الكريم وفي كونه منزلًا من قبل الله سبحانه وتعالى، فادعوا أنّه كتاب بشريّ، وإن كان فيه روعة وجمالية.

إنّ القرآن الكريم يقع من رسالة الإسلام موقع القلب النابض بعقيدته، وتشريعاته، وآدابه، وأخلاقه، ولا يختلف اثنان على هذه الحقيقة.

ولقد علم المستشرقون ذلك، فجعلوا القرآن الكريم موضوعًا لدراساتهم المتعدّدة، وكانت أغلب هذه الدراسات تهدف إلى التشكيك في القرآن الكريم، فحاولوا إهدار السنّة المطهرة، وإلغاء دورها في كونها المبيّنة للقرآن الكريم، وقد نصّ القرآن الكريم ذاته على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النمل: ٤٤).

وكان هدفهم هو النيل من القرآن الكريم ومعه النيل من الإسلام، ولكن ذلك لم ولن يحصل أبدًا، ففي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨)، وهذا النور تمّمه الله ﷻ بولاية أمير المؤمنين عليه السلام[١].

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان العرب الذين اختارهم مهدًا لخاتم رسالاته في وقت بلغت فيه لغتهم من الفصاحة، وروعة البلاغة، وعظمة البيان ما لم تبلغه لغة في الأرض على لسان أهلها في عصر من العصور، ثمّ أنّه طالب المعارضين المنكرين في تحدّ أثبته القرآن في آياته إنّ يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤). أو بعشر سور من مثله، قال تعالى: ﴿... قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ...﴾ (هود: ١٣)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

لقد واجههم القرآن الكريم بهذا التحدّي فما كان منهم إلّا العجز المطبق الناطق بصدق كتاب الله تعالى وصدق ما جاء به الرسول ﷺ.

يقول شلتوت: «وقد أنزله الله ﷻ؛ لأنّ يكون معجزة دالّة على صدق الرسول في دعوة

١. الكلينيّ، الكافي، ١: ٤٣٣؛ المازندرانيّ، شرح أصول الكافي، ٧: ١١٦؛ النائيني، الحاشية على أصول الكافي، ٥٨٥.

الرسالة والتبليغ عنه سبحانه، وأن يكون منبع هداية وإرشاد، ومصدر تشريع وأحكام»[١].

ولهذا ركّز المستشرقون في حربهم على الإسلام بهجومهم على القرآن الكريم؛ لأنّه معجزة هذا الدين، ومنهجه في العقيدة والتشريع كما ذكرنا.

واختصّ هؤلاء في الهجوم على مصدر القرآن بغرض إهدار قداسته كونه وحيًا معصومًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد اعتاد المستشرقون الطعن في القرآن الكريم بأسلوب أو بآخر، وإنّ عملهم لا يعدّ نقدًا أو تعبيرًا برأي آخر، بل هو صادر عن حقد وكراهية للإسلام والقرآن، وأحيانًا عن عصبيّة شديدة، والتعصّب كما تعرفون يعمي ويصمّ، ويقلب الحقّ باطلًا والباطل حقًّا، فإنّ غرضهم الوحيد هو التشكيك في القرآن الكريم وقداسته كي يتواصلوا إلى صرف أنظار المسلمين عن القرآن الكريم[٢].

يقول المستشرق البريطانيّ جيوم: «القرآن من النصوص الأدبيّة العالميّة التي لا يمكن ترجمتها من دون أن تفقد قيمتها ففيه جرس له جمال عجيب وتأثير تطرب له الأذن وكثير من المسيحيّين العرب يتحدّثون بإعجاب شديد عن أسلوبه وقد أخذ أكثر المستشرقين بروعته، وحينما يُتلى القرآن نجد أنّ له تأثيرًا ساحرًا يجعل المستمع لا يلقي بالًا إلى تركيب جمله العجيب أو إلى ما يحتويه في بعض الأحيان من مسائل تزهدنا فيه نحن المسيحيّون، وهذه الصفة التي في القرآن بما تجعل في لغته رنّة حلوة والتي تخرس أيّ نقد له قد أدّت إلى نشوء الاعتقاد بأنّ القرآن لا يمكن محاكاته والحقيقة المؤكّدة أنّه ليس في الأدب العربيّ وعلى خصوبته واتّساعه في النثر والشعر ما يمكن مقارنته بالقرآن»[٣].

وبعد هذا الكلام يبدأ هذا المستشرق بطرح رؤياه عن المجتمع الإسلاميّ وكيفيّة المعاملة مع القرآن فيقول: «في كثير من الأماكن يطلب إلى الأطفال دون العاشرة أن يحفظوا عن ظهر قلب

١. شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ٤٩٨.
٢. م. ن، ٤٩٩.
٣. م. ن، ٧٤.

آياته البالغة ٦٢٠٠ آية، وهم يقومون بهذا المجهود الضخم على حساب قوّتهم العقليّة وذلك التفكير جدّي إلّا قليلًا»[١].

يحاول جيوم هنا أن يؤكّد على أنّ المجتمع الإسلاميّ قاسٍ على أطفاله بحيث يجبرهم على حفظ القرآن الكريم بأكمله لمن هم دون سن العاشرة في حين أنّ المناهج التربويّة للدول الإسلاميّة وكما هو معروف تتدرج في تحفيظ الطلبة الصغار الآيات القرآنيّة وتبدأ معهم في السور القصيرة. وإن حدث وحفظ بعضهم القرآن الكريم فهذا ناتج من موهبته ونبوغه في ذلك وهو لا يؤدّي إلى إنهاك أذهانهم بل على العكس من ذلك تمامًا نجدهم فيما بعد من ذوي التفكير السليم.

ويواصل جيوم تهجّمه على قدسيّة القرآن، فيقول: «الصورة الكتابيّة ليونس وإلياس مأخوذة بالطبع من اليونانيّة، ولو كان أحد من هؤلاء المشاهير معروفًا لمن كانوا يصغون إلى محمّد، فلا يمكن أن نعقل أن تُلقى إليهم هذه الأسماء في صورتها اليونانيّة أو الآراميّة، وإذا كانوا يعرفون هذه الأسماء، فلا بدّ أن يكونوا قد سمعوها من اليهود أو النصارى؛ ولهذا فإنّ أهل مكّة حين اتّهموا الرسول بتأليف القرآن بمساعدة أجانب يكتبون له أساطير الأوّلين ليل نهار كان لديهم ما يبرّر هذا الاتهام؛ وذلك حين نجد دليلًا لغويًّا واضحًا إلى جانب الأساطير الموجودة في التلمود مثل رفض الشيطان السجود لآدم، وهذه القصّة من أصل أجنبيّ، فكيف يدعى أنّ القرآن عربيّ أصيل؟!»[٢].

وقد علّق مترجم الكتاب على ادّعاءات جيوم قائلًا: «إنّ القرآن عربيّ أصيل، وإلّا لما كان معجزة بالنسبة للعرب، ومعنى كونه معجزة أنّهم فهموا لغة ومعنى ولم يستطيعوا محاكاته... إنّ الكلمات التي جاءت في القرآن، والتي هي من أصل أجنبيّ إنّما دخلت اللغة العربيّة باختلاط العرب بالأمم الأجنبيّة المجاورة؛ لأنّ البيئة العربيّة لم تكن مختلفة»[٣].

---

١. م. ن، ٧٥.

٢. م. ن، ٦٣.

٣. م. ن، ٦٣.

ونحـن نقول إنّ القـرآن الكريم عربيّ أصيل، وهو حكمنـا في كلّ المجالات بما فيها اللغة العربيّـة، وعلماء اللغة يسـتندون إلى مفردات وقواعد في اللغـة والنحو، وليس العكس وعدم اسـتيعاب جيوم لانفتاح المجتمع العربيّ قبل الإسـلام واختلاطـه بالأقوام الأخرى هو الذي جعل إدراكه مثقلًا بتلك المغالطات؛ ولعلّ ذلك ناتج بالتأكيد عن هدفه الرئيسيّ وهدف من هم على منهجه بإنكار النبوّة والتشـكيك بالقرآن، بل لم يكتف بذلك، حيث ادّعى أنّ ذوي التفكير السليم والثقافة العالية هم مدركون بأنّ القرآن من صنع البشر، فيقول جيوم: «لعلّ أهمّ سؤال في الموضوع هو إلى أيّ حدّ تأثّر المسلمون المحدثون بالنقد التاريخيّ الحديث وبالفلسفة الحديثة والعلم الحديث؟ الإجابة على هذا السـؤال تؤكّد أنّ الذين تلقّوا العلم في جامعات الغرب هم وحدهم الذين يفهمون هذه الأمور فهمًا صحيحًا، ومع أنّهم فئة قليلة، إلّا أنّه يسـتحيل إغفال شأنهم، ونظرة هؤلاء إلى القرآن -كما يتّضح من الحديث معهم- ليس هي النظرة التقليديّة، كما أنّهم ينظر:ون إلى الحديث أيضًا بعين النقد ومنهم -كما سنرى- من خاض في الحديث من دون أدنـى خوف أمّا إنّهم يتناولون القرآن على أنّه من صنع الإنسـان، حتّى ولو كان هذا الإنسـان ملهـمًا، فهـذا ما لا يجرؤون على الخوض فيه؛ إذ إنّ سـلطة العلماء كبيرة بالنسـبة لهم كما إنّ أيّ منصب في الخدمة العامّة سـيحرم عليهم لو أنّهم عبّروا عن شـكوكهم فيـما إذا كان القرآن هو حقًّا من الله»[١].

يبـدو إنّ الكاتـب هنا وكأنّه قد آمن إيمانًـا مطلقًا بأنّ القرآن من صنع إنسـان، وإنّ العقل والمنطق يؤكّدان ذلك، وإنّ الطلبة المسـلمين الدارسـين في الغرب بعضهـم من ذوي العقول السـليمة كما يراها هو يؤيّدون ذلـك؛ لذلك عملوا على القول ببشريّة القـرآن الكريم، إذ قال المستشرق ويلز بصدد ذلك: «محمّد هو الذي صنع القرآن»[٢].

ويمكن الردّ على من قال ببشريّة القرآن الكريم، ليس من القرآن لأنّهم لا يعترفون به أصلًا، وإنّما من بني جلدتهم وهو المستشرق سيل؛ إذ قال: «ولا شكّ أنّ أسلوب القرآن الكريم مذهل

١. م. ن، ١٤٨.

٢. بارت، معالم تاريخ الإنسانيّة، ٣: ٦٢٦.

فهــو جميل مشرق، وهو مفعم بذوق شرقيّ، فضلًا على أنّه ممتلئ بالتعبيرات الهادية المنمّقة التي تنطــق بالحكمة، كــما إنّ المواضع التي تذكر عظمة الله وصفاته هي الذروة فيما قدّم الأســلوب القرآنيّ من فنون البيان»[١].

وقال هيرتشــفلد: «إنّ هذا الدين الذي أحدث الثورة الكــبرى لم يقم على مجرّد الخيال»[٢]، وإنّ إعجاز القرآن الكريم أوّل دليل على مصدر القرآن الكريم الإلهيّ، وبه ثبوت صدق رسالة النبيّ ﷺ؛ لذا قام المستشرقون بالتشكيك في إعجازه والطعن فيه، وفي جماله وأسلوبه وبلاغته.

ويقول الباقلانيّ: «فأمّا مــن كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى ســمع القرآن عرف إعجازه»[٣]، أي: لا يمكن لأيّ كائن أن يُقدّر إعجاز القرآن الكريم سوى أهل اللغة والبيان ذوي الخبرة بعلوم اللغة المختلفة، وهذا يبطل ما ذكروه من إنّ مصدر القرآن وهو محمّد ﷺ.

أمّا مونتغمري فقال: «كما إنّ خديجة كانت ابنــة عمّ رجل يــدعى ورقة بن نوفل بن أسد، وهو رجل متديّن اعتنق أخيرًا المسيحيّة غالبًا، وبالتأكيد فإنّ خديجة وقعت تحت تأثيره، ويمكن أن يكون محمّد قد أخذ شيئًا من حماسة فكرته»[٤].

وقــال أيضًا: «ويبدو ورقة من بين الذين اتصل بهم محمّد لســبب معرفته بكتب المســيحيّة المقدّســة، ولا شــكّ أنّ المقطع القرآنيّ حين أورده محمّد يجب أن يكون قد ذكره بما هو مدين به لورقة»[٥].

وللردّ على هذه الفرية نستطيع أن نقول: إنّهم خلطوا بين الحقّ والباطل، لأنّ هناك لقاء بين الرسول ﷺ وبين ورقة بن نوفل لمرّة واحدة، وهذا ثابت بالنصوص، إذ قال ورقة للنبيّ ﷺ: «هذا الناموس الذي نزل الله على موســى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتنــي أكون حيًّا إذ يخرجك قومك،

---

١. العقيقيّ، المستشرقون، ٢: ٤٧.

٢. م. ن، ٢: ٤٠١.

٣. شاكر، إعجاز القرآن، ٥١.

٤. وات، محمّد في مكة، ٤٧.

٥. م. ن، ٤٨.

فقال رسول الله ﷺ: أَوَمخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قطّ بمثل ما جئت به إلّا عُدوّي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزّرًا»[١].

وهذا اللقاء قد تمّ في زمن متأخّر بعد مجيء ملك الوحي المرّة الأولى إلى رسول الله ﷺ، ممّا يدلّ على عدم وجود صلة سابقة بينهما، بل إنّ السيّدة خديجة ﷺ هي التي عرّفته به فكان ورقة من الذين تنصّروا في الجاهليّة وكان يعرف العربيّة والعبرانيّة، وكان له علم بالكتب السابقة[٢].

وهذا اللقاء الذي حصل بينهما لا يمكن أن يكون ينبوعًا للقرآن الكريم كما يقول المستشرقون؛ لأنّ المقابلة كما هو معلوم كانت مقابلة خاطفة، وإذا قلت لي إنّ ورقة بقي حتّى شهد الدعوة المحمّديّة والصراع بين المسلمين والمشركين، فهذا الأمر غير صحيح، وهذا واضح من كلام ورقة السابق.

يمكن القول: إنّه لا يوجد دليل واحد على هذا الادّعاء، ولا يمكن على وفق المنهج العلميّ سماع هذه التهمة، فضلًا عن قبولها، ولكن كلّ مستشرق يأخذ هذه الفرية ممّن سبقه على أنّها مسلَّمة استشراقيّة تسيطر على المستشرقين جميعًا، ولهم في ذلك فروض افترضوها.

وقد بيّن القرآن الكريم العلاقة بينه وبين الكتب السماويّة، فقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (يونس: ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...** ﴾ (الشورى: ١٣).

وإنّ العلاقة بين القرآن الكريم وبين الكتب السماويّة السابقة ليست علاقة اقتباس، بل هي علاقة تصديق وتفصيل، كما قال تعالى: ﴿**... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ (المائدة: ٤٨).

---

١. ابن راهويه، مسند ابن راهويه، ٢: ١٣٦؛ ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني، ١: ٤٢٨؛ شرف الدين، النص والاجتهاد، ٤٢١.

٢. القاضي النعمان، شرح الأخبار في فضائل الأئمّة الأطهار، ٣: ١٦.

وقد ردّ المستشرقون بعضهم على بعض، فقال المستشرق دي مونت كروس: «يا محمّد، أنا لا أصدّق أنّك قد تسلّمت هذه الآراء من الله، لأنّك عجيب غريب في رسالتك، لأنّك لا تتّفق مع أيّ كتاب مصدّق، يجب أن ننبذ ما ادّعى محمّد أنّه تسلّمه من الله، لأنّه مناقض تمامًا للأحكام التي كتبها موسى والأنبياء والرسل من بعده»[١].

فهذا القول يؤكّد على أنّ القرآن الكريم غير مقتبس من التوراة والإنجيل، وهو معارض لما قاله المستشرقون بأنّ القرآن من أصول يهوديّة ونصرانيّة.

ونستشهد بقول المستشرق الفرنسيّ الطبيب موريس بوكاي أيضًا الذي نفى بشريّة القرآن الكريم، إذ قال: «لو كان مؤلّف القرآن إنسانًا، فكيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحيّ أن يكتب ما اتّضح أنّه يتّفق اليوم مع العلوم الحديثة؟ ليس هناك أي مجال للشكّ، فنصّ القرآن الذي نملك اليوم هو النصّ الأوّل نفسه، ومن ذا الذي كان في عصر نزوله يستطيع أن يملك ثقافة علميّة تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلميّة، إنّ في إشارات القرآن قضايا ذات صبغة علميّة تثير الدهشة»[٢].

وقد نقل عدد من المستشرقين المنصفين حقائق القرآن الكريم وصدق نبوّة الرسول ﷺ إلى العالم الغربيّ، ولكن بصوت خافت، بالمقابل العدد الأكبر منهم قد نقلوا صورة مشوّهة عن القرآن الكريم وعن الرسول ﷺ والإسلام بصورة عامّة، ومن ثمار ذلك ما نلاحظه اليوم من إساءات وافتراءات وتشويه للدين الإسلاميّ عامّة، وللرسول ﷺ خاصّة.

والواقع إنّ العقل والمنطق يؤكّدان بكلّ وضوح إنّ القرآن لا يمكن أن يكون إلّا من الله سبحانه وتعالى وما فيه من دلائل ومعجزات وأنباء كلّها تدلّل على عظمة هذا الكتاب واستحالة أن تصدر كلماته من إنسان، مهما بلغت به درجة الذكاء والإطّلاع، ومهما تلقّى مساعدات من رجال دين نصارى ويهود كما يزعمون.

---

١. حنيف، مصدر القرآن الكريم، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقيّة، ٥٠.

نال شهادة الطب وأصبح من أمهر الجرّاحين في فرنسا، وقد اعتنق الإسلام فقال: «ولقد دخلت الاسلام وآمنت بهذا القرآن»، حنيف، مصدر القرآن الكريم، ٧٦.

٢. المنظّمة العربيّة للترجمة والثقافة والعلوم، «المقدمة»، ٣٧.

أمّا قوله بأنّ من يشكّك في القرآن في المجتمعات الإسلاميّة سوف يُطرد من وظيفته، فهذا يدفعنا إلى سؤاله هل المجتمعات غير الإسلاميّة تبقي من يسيء السيرة والسلوك في وظيفته؟ إذا كان الجواب لا، فإنّ من أكبر مظاهر سوء السلوك في المجتمعات الإسلاميّة هو الكفر بالله والتشكيك في كتابه المقدّس وفي عقائد المجتمع. وخلاصة القول: إنّ المستشرقين خاضوا في الموضوعات التي تخصّ القرآن الكريم، وقالوا فيه كلمات لا يقبلها العقل، منها مصدر القرآن الكريم، إذ لم يتوصّل أكثرهم إلى تكوين فكرة صحيحة عنه وعن الرسول الكريم ﷺ الذي أنزل القرآن عليه، ولكنّهم أثاروا حوله شبهات بقصد التشكيك والتضليل، وزعموا إنّ له مصدرًا بشريًّا مثل ما قاله المشركون.

وكانت لهم آراء مختلفة عن مصدر القرآن الكريم، فكلّ مستشرق يزعم له مصدرًا غير المصدر الذي يزعمه مستشرق آخر، لأنّ غاياتهم ليست معرفة علميّة وثقافيّة أصيلة، بل لهم هدف سياسيّ واجتماعيّ ودينيّ وعسكريّ واقتصاديّ؛ لذلك كانوا يبحثون لأنفسهم عن سلاح غير سلاح القتال ليحاربوا القرآن الكريم، وقاموا بتضليل الواقع أمام الأجيال في الماضي والحاضر.

ولا ننسى المستقبل أيضًا إذ غرسوا بذورهم لتضليل الأجيال بوساطة الكتب والمجلّات والموسوعات والوسائل السمعيّة والبصريّة من إذاعة وتلفاز وإسطوانات مدمجة وغير ذلك من الوسائل، هذا الأمر واضح عندنا ونلمسه جيّدًا.

وإنّ الكلام عن القرآن الكريم ورأي المستشرقين فيه كلام طويل يحتاج إلى أكثر من بحث؛ لذلك سنتناول هذا الموضوع بالتفصيل في بحوث قادمة إن شاء الله تعالى.

موقف المستشرقين من انتشار الإسلام في عصر الرسول ﷺ

صوّر بعض المستشرقين البريطانيّين معارك الرسول ﷺ وغزواته على أنّها حروب هدفها الإغارة والنهب والسلب، وأنّ التاريخ الإسلاميّ هو تاريخ دمويّ، وأنّ الإسلام لم ينتشر إلّا بالسيف، فكتبوا في ذلك كثيرًا، ساعين من خلال ذلك إلى إغفال الجوانب المشرقة والحضاريّة

في الإسلام ودخول الكثير من الشعوب والأمم في الدين الإسلاميّ رغبة وطواعية واقتناعًا به.

لا ريب في أنّ تهجّم المستشرقين على الإسلام وتهجّمهم على النبيّ ﷺ، ما هو إلّا حقد دفين، وكلّ قول مبنيّ على الحقد، فهو باطل بالتأكيد، ولكنّ الإسلام لا يزال يواجه عداءً مريرًا، فإنّ الباحث الغربيّ اعتقد أوّلًا بطلان الإسلام، وعدم صحّة الدعوة المحمّديّة؛ لهذا نراه يبحث ليجد ما يبرّر معتقده، فهو ليس باحثًا عن الحقيقة، ولكنّه باحث عن شيء آمن به من قبل، وهذا فرق بين الباحث المسلم والباحث الغربيّ.

فنحن المسلمون نؤمن بموسى وعيسى وسائر الأنبياء، وحين نتحدّث عن اليهوديّة أو المسيحيّة نحمل في قلوبنا احترامًا لدعاتها وأنبيائها، ولكن الغرب عندما يتحدّثون عن نبيّنا ﷺ يعاملونه بالعكس.

وكما هو معروف على المسلمين ألّا يقابلوا الشخص المسيء بالمثل، لأنّ عنواننا التسامح والعفّة والكلام الطيب، وهذا الأمر نابع من سنّة رسول الله ﷺ، فإنّه يقابل الشتم والرمي والإهانة بالتسامح وقول الصواب والمنطق الحسن اللين اتّباعًا للتعليم الإلهيّ الذي لقّنه ولقّن الأنبياء: من قبله خير القول وجميل الأدب[1].

ففي قوله تعالى خطابًا لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (طه: ٤٣-٤٤)، وقال الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا**﴾ (الإسراء: ٢٨).

ومن أدبهم في المحاورة والخطاب أنّهم كانوا ينزلون أنفسهم منزلة الناس، فيكلّمون كلّ طبقة من طبقاتهم على قدر منزلته من الفهم، ففي قوله ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»[2]، فما كلّم الرسول الكريم ﷺ أيّ إنسان بكلام يقلّل من قيمة ذلك الإنسان، أو كلام يُراد به السخرية قطّ، وحاشى لرسول الله ﷺ ذلك.

---

١. الطباطبائي، تفسير الميزان، ٦: ٢٩٨.

٢. البرقيّ، المحاسن، ١: ١٩٥؛ الطبرسي، مشكاة الأنوار، ٤٤٠؛ العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ١٩٦.

وليعلم جميع الناس إنّ البعثة بالنبوّة إنّما بنيت على أساس الهداية إلى الحقّ وبيانه والانتصار له، وليس كما ادّعى المستشرقون.

وهنا سؤال يثار، هل رأيتم وسمعتم إنّ شيئًا يبنى على الباطل؟ فإذا بُني ذلك الشيء فإنّ أجله قصير ومنتهٍ، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: ٥١)، أي أنصارًا وأعوانًا[١].

فلا مساهلة ولا ملابسة ولا مداهنة في حقّ ولا حرمة لباطل؛ لذلك جهّز الله سبحانه وتعالى رجال دعوته وأولياء دينه وهم الأنبياء: بما يسهّل لهم الطريق إلى اتباع الحقّ ونصرته.

ونلاحظ اليوم إنّ الحقائق التي جاء بها الإسلام، هي مشكوك فيها ومنبوذة عند الغرب بصورة عامّة، بسبب ما نقله المستشرقون لهم، وخصوصًا مسألة انتشار الإسلام، وهذا الانتشار السريع قد أثار مخاوف الغرب؛ لذلك قام المستشرقون بتشويه الإسلام عن طريق افتراءاتهم الكاذبة.

لهذا نجد كتاباتهم لا تخلو من التأكيد على عنف الإسلام ودور السيف في نشر الإسلام إلى مختلف الشعوب والقبائل والأمم، والزعم بأنّ النبيّ محمّدًا ﷺ رجل يحب القتال وإنّ أصحابه رجال يعشقون الغزوات والسلب.

يقول وات: «كانت مسألة أخرى تشغل تفكير محمّد، وهي أنّه كان يحرم القتال والنهب بين المسلمين، وبهذا إذا دخل عدد كبير من القبائل أو قبلت زعامة محمّد لها، فكان عليه أن يبحث عن تنفّس آخر لطاقتها وقد نظر محمّد إلى المستقبل، ووجد أنّه يجب توجيه غرائز السلب والنهب عند العرب نحو الخارج، نحو المجتمعات المجاورة لشبه الجزيرة، كما أدرك إلى حدّ ما أنّ نموّ طريق سورية هو إعداد للتوسّع»[٢].

يحاول وات هنا أن يبيّن إنّ غرائز العرب موجّهة نحو السلب والنهب، فتاريخهم في نظره

١. الواحديّ، تفسير الواحدي، ٢: ٦٦٥؛ البغويّ، تفسير البغويّ، ٣: ١٦٨.

٢. وات، محمّد في المدينة، ٦٧.

لا يحتوي إلّا المعارك والنزاعات، كما إنّ الإسلام لم يتمكّن أن يهذّب تلك الغرائز، ولا نعرف لماذا لم يجد وات غير هذا التفسير للحروب التي خاضها المسلمون؟ ألا يعرف وات أنّ المسلمين قد تركوا أموالهم ومنازلهم في مكّة بعد الهجرة، وأنّ كثيرًا منها قد تعرّض للسلب من قِبل كفّار قريش؟ ثمّ لا يعرف وات إنّ كثيرًا من حروب النبيّ ﷺ كانت دفاعيّة لعلّ من أبرزها أُحد والخندق وغيرها؟ وهل تجاهل وات إنّ نقض اليهود لاتفاقيّاتهم مع الرسول ﷺ ومحاولاتهم قتله أكثر من مرّة كانت أسبابًا لشنّ الحرب عليهم؟

إننا نعجب أن يعمد كثير من المستشرقين إلى ذلك التوجّه وإلى استخدام مفردات غير لائقة ومعان غير صحيحة وادّعاءات مغرضة. فهذا مستشرق آخر يقول: «ولمّا كان المهاجرون معدمين من الناحية الاقتصاديّة ولا يرغبون في أن يعتمدوا كلّيًّا على المدنيّين، فقد تحوّلوا إلى المهنة الوحيدة الباقية وهي السطو، وقد عبّر الكتّاب الأوروبيّون عن استيائهم البالغ وهم محقّون في ذلك، رأوا أنّ رسول الله يقود المسلمين في غارات على قوافل التجّار من أجل الحصول على الغنيمة إلّا أنّه طبقًا لظروف ذلك الزمن وطبقًا لمبادئ العرب الأخلاقيّة كان السطو مهنة طبيعيّة وشرعيّة وقيام الرسول بمثل ذلك العمل لا يلحق به أيّ عار»[١].

ثمّ يأتي مستشرق آخر يتباكى على ما حدث للمجتمعات من جرّاء الفتوحات الإسلاميّة ويصفها بالإعصار الصحراويّ الذي داهم ممالك متحضّرة، فيقول: «والعرب الذين هبّوا في خلال نصف قرن كأنّهم إعصار صحراويّ ونزحوا من بلاد الحجاز إلى حين يرون عمد هرقل في الغرب كما نزحوا إلى حدود الهند من الشرق استطاعوا أن يفتحوا ممالك كانت متحضّرة بالفعل»[٢]، ويحاول هؤلاء وغيرهم تفسير التاريخ الإسلاميّ على أنّه همجيّ وحكمه استبداديّ[٣]، وأنّه ما كان له ينتشر ويبقى لولا الدمويّة والاستبداديّة. كما تباكى بعض المستشرقين أحيانًا على

١. برنارد، العرب في التاريخ، ٧٢.

٢. بريجيس وآخرون، تراث الإسلام، ٢: ١١٢.

٣. توماس، الخلافة تاريخ الحضارة الإسلامية حتى آخر العهد العثماني، ٢٩.

خصــوم النبيّ خاصّةً اليهود، فيصف برنارد لويس نصر المســلمين في خيبر: «بأنّ أوّل احتكاك بين الدولة الإسلاميّة وشعب مقهور غير مسلم»[١].

وكان قبل ذلك قد وصف لويس الوثيقة التي كتبت بين الرسولﷺ واليهود في المدينة بأنّها أولى نحو الحكم الاستبداديّ الإسلاميّ[٢].

رغم ذلك فقد تصدّى بعض الكتّاب المسلمين لتلك المزاعم وفنّدوها، فيقول عبّاس محمود العقاد في دفاعه عن حروب النبيّﷺ: «الإسلام إنّما يُعاب عليه أن يحارب بالسيف سلطة تقف في طريقه وتحول بينه وبين أســماع المستعدّين للإصغاء إليه؛ لأنّ السلطة تُزال بالسلطة ولا غنى في إخضاعها عن القوّة»[٣].

ويقول أيضًا: «إنّ الإســلام في بداية عهده كان هــو المعتدى عليه، ولم يكن من قبله اعتداء على أحد، ولقد صبر المســلمون على المشركين، حتى أمروا أن يقاتلوهم كما يقاتلون المســلمين كافّة... وحــروب النبيّﷺ كما أسلفنا كانت كلّها حروب دفاع، ولم تكن منها حرب هجوم إلّا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال، وتستوي في ذلك حروبه مع اليهود أو مع الروم»[٤].

إنّ من الواجب على هؤلاء المستشرقين أن يتفهّموا معارك الرسولﷺ وأسبابها وأن يكونوا منصفين ومنطقيّين في التّعامل مع ذلك الموضوع، إضافة إلى ذلك الإســلام قد هذّب في نفوس العــرب بعض ما بقي مــن آثار في الجاهليّة، فلا رغبة في الســطو والنهــب، وإنّما رغبة في نصر الدين الإســلاميّ ولم تكن الفتوحات الإسلاميّة إلّا من بواعث دينيّة على عكس ما يقوله أحد المستشرقين بأنّ البواعث الدينيّة لم تكن تسربّت إلّا قليلًا في نفوس أبطال الجيوش العربيّة الذي يصف أيضًا تلك الفتوحات بأنّها: «هجرة جماعيّة نشيطة قويّة البأس دفعها الجوع والحرمان إلى

١. برنارد، العرب في التاريخ، ٥٩.
٢. م. ن، ٥٥.
٣. العقاد، عبقرية محمّد، ٤١.
٤. م. ن، ٤١.

أن تهجر صحاريها المجدبة وتحتاج بلادًا أكثر خصبًا كانت ملكًا لجيران أسعد منهم حظًّا»[١].

وهذا الوصف فيه مغالطات كثيرة، ويكفي أن نعرف أنّ المسلمين لمّا قاموا بتلك الفتوحات ووصلوا إلى تلك البلدان التي يصف أهلها بأنّهم كانوا أسعد حظًّا لما وصل إليهم المسلمون ازدهرت كثير من مدنهم حضاريًّا وأصبحت مراكز للعلم والحضارة والتقدّم كلّ ذلك بفعل دخول الإسلام إليها، وما حقّقه المسلمون القادمون كما يقولون من الصحاري المجدبة من منجزات حضاريّة.

لذا يعدّ الاستشراق من أخطر الظواهر المضادّة للإسلام، فما عرف التاريخ الإنسانيّ عبر مراحله المتباينة، إنّ طوائف من أمم مختلفة تنوّعت ثقافاتها ولغاتها وأعرافها التقت كلماتها واتّحدت أهدافها حول العكوف على دراسة دين لا تؤمن به، لا تريد من ذلك معرفة الحقّ من الباطل وإنّما تريد العمل من دون كلل من أجل تشويه الإسلام وحضاراته الإنسانيّة الرائعة[٢].

فكانت الفتوحات الإسلاميّة من أهمّ القضايا التي شغلت الفكر الاستشراقيّ، وقد كان لهذا الفكر وما يزال موقفه العام من تلك الفتوحات أنّه موقف الاتهام الباطل والحكم الجائر بأنّها ظاهرة استعماريّة، وليست فتوحات في بناء الشخصيّة الإنسانيّة[٣].

وهناك كثير من المستشرقين الذين ينكرون أن يكون الإسلام دعوة عالميّة، ويرى هؤلاء إنّ الرسول ﷺ بُعث إلى العرب وحدهم، وإنّ الرسالة الإسلاميّة كانت للأمّة العربيّة دون غيرها، إذ يقول وليم موير: «إنّ فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد، وإنّ هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيّدها لم يفكّر فيها محمّد نفسه، وعلى فرض أنّه فكّر فيها فقد كان تفكيره تفكيرًا غامضًا، فإنّ عالمه الذي كان يفكّر فيه إنما كان بلاد العرب، كما إنّ هذا الدين الجديد يُهيّأ إلّا لها، وإنّ محمّدًا لم يوجّه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلّا للعرب دون غيرهم،

١. العقّاد، الإسلام والحضارة الإنسانيّة، ٦٤.

٢. كومش، مصادر القرآن الكريم عند المستشرقين، ندوة القرآن الكريم في الدراسات القرآنيّة، ٨.

٣. شلبي، الإسلام والمستشرقون، ٩.

وهكذا نرى إنّ نواة عالميّة الإسلام قد غرست، ولكنّها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنّما يرجع هذا إلى الظروف، والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج»[١].

كما إنّ مبادئ الإسلام تقوم على أساس السلام، وليس الحرب والتسامح، وليس العنف، وما حدث من حوادث عرضيّة لم يفهمها ولم يقبلها بعض المستشرقين كان لها ما يبرّرها، لحماية الدين الإسلاميّ، والدفاع عن أبناء المجتمع الإسلاميّ والإنسانيّة بصورة عامّة.

موقفهم من تعدّد زوجات النبيّ ﷺ

في الوقت الذي أشار فيه بعض المستشرقين إلى أنّ النبيّ ﷺ كان من النسّاك، وذلك من خلال عزلته التقليديّة قبل البعثة وإنّ هؤلاء النسّاك أهملوا الرغبات الخاصّة بهم[٢]، خاصّة أنّ النبيّ ﷺ كان في عنفوان رجولته في تلك الفترة التي كان يقضيها في العزلة والتعبّد بعيدًا عن أهله وزوجته، رغم ذلك نجد كثيرًا من المستشرقين يتّهمون الرسول الكريم ﷺ بأنّه رجل مزواج وذو رغبات قويّة في النساء، فيقول المستشرق وات: «نعلم من بعض الوثائق إنّ محمّدًا بالإضافة إلى زيجاته الشرعيّة واتّصالاته بالجواري كانت له علاقة مع نساء أخريات، وذلك حسب النظام الأمميّ القديم»[٣]، وهم يستغربون من خصوصيّة النبيّ ﷺ في زواجه من عدد من النساء فيصفونه بالرجل الشهوانيّ من دون ملاحظة ومعرفة أسباب ودوافع تلك الزيجات، فهذا المستشرق وات يدّعي ظلمًا أنّ للرسول علاقات غير شرعيّة مع نساء غير زوجاته وجواريه كما يقول، وهذا تهجّم واضح على شرف النبيّ ﷺ، كما تهجّم على شرف أزواجه الطاهرات حين يقول: «وتفسّر لنا عدّة روايات أسباب هذه التشريعات (الحجاب)، فقد بقي بعض المدعوّين أثناء حفلة زفاف زينب بنت جحش وقتًا طويلًا، وكذلك لامست أيدي بعض الرجال أيدي نساء محمّد، وكانت

١. حسن، تاريخ الإسلام، ١: ١٦٩.
٢. أوليري، الفكر العربيّ ومركزه في التاريخ، ١٥٩.
٣. وات، محمّد في مكة، ٤٣٤.

نساء النبيّ يخرجن في الليل لقضاء حاجاتهن فيهينهنّ بعض المنافقين»[١].

لنعد إلى موضوعنا الرئيس، وهو تعدّد زوجات النبيّ وموقف المستشرقين منه، فعلى الرغم من موقف (وات) وما ذكره بشأن ملاقاة الرسول ﷺ بالنساء، إلّا أنّه مع ذلك فسّر دوافع تعدّد أزواجه بأنّها أسباب سياسيّة[٢]، ومع ذلك فإنّ الطابع العام للمستشرقين البريطانيّين في التعامل مع قضية تعدّد أزواج النبيّ ﷺ يغلب عليه التجنّي والاتهامات غير الصحيحة، لا سيّما مسألة زواجه من السيّدة زينب بنت جحش (رضي الله عنها) وما قالوه فيها وما اتّهموا به النبيّ ﷺ من اتهامات.

والأهمّ من ذلك إنّ على المستشرقين أن يعرفوا دوافع تلك الزيجات خاصّة أنّه قضى فترة طويلة من شبابه متزوّجًا من أرملة أكبر منه سنًّا بكثير، وهي السيّدة خديجة ﷺ، ولم يتزوّج عليها إلى وفاتها، فكيف يدّعون بعد ذلك أنّه كان رجلًا شهوانيًّا؟

أمّا زواجه من البقيّة، فكان -كما هو معلوم- لأسباب عديدة سياسيّة منها واجتماعيّة، فقد تزوّج من السيّدة سؤدة بنت زمعة بعد وفاة زوجها، الذي هاجرت معه للمدينة، فلم يبق أحد بعده، ورملة بنت أبي سفيان تركها زوجها بعد أن تنصّر بالحبشة، فطلبها النبيّ ﷺ خوفًا عليها.

وأم سلمة كانت امرأة مسنّة حين تزوّجها النبيّ ﷺ، وجويرية بنت الحارث تزوّجها ليعتقها؛ إذ كانت إحدى السبايا، وحفصة بنت عمر عرضها أبوها على النبيّ ﷺ بعد وفاة زوجها، وزينب بنت جحش هي ابنة عمّة النبيّ، وكان قد زوّجها زيد بن الحارثة ولم يكن له نفس بها غير أنّ حكم الله سبحانه، ورغبته ببيان بعض الأحكام الإسلاميّة الشرعيّة، إضافة لتكرار المشاكل بين زينب وزوجها كانت من مسبّبات ذلك الزواج.

وبعد بيان معظم الأسباب التي وراء زواج الرسول ﷺ أين فيها ما يدّعيه بعض المستشرقين من غريزة قويّة وجامحة لدى النبيّ ﷺ؟ وقد رأينا إنّ عددًا مهمًّا من أزواجه كن أرامل وكبار

---

١. م. ن، ٤٣٥.

٢. م. ن، ٤٣٦.

السـن، وما زواجه منهن إلّا لدوافع اجتماعيّة كما أسلفنا، إضافة إلى أنّ مهام الدعوة الإسلاميّة بوصفه المسـؤول الأوّل عنها لا يمكن أن ينهض بها رجل كلّ تفكيره في النسـاء كما يزعمون، فواقع تاريخ النبيّ محمّدﷺ يفيـد بأنّـه كان رجـلًا قامت بمجهوداته دولـة الإسلام، وإنّـه خصّص معظـم أوقاته لتلك المهمّـة، ومع ذلك فهو رجل كباقي الرجال يتزوّج النساء ويعيش حياته معهنّ بصورة طبيعيّة.

لذا أقول: على كلّ مسلم أن يحافظ على ثقته بالإسلام، فإنّ الغربيّين بصورة عامّة، يعملون على إفقاد المسـلم ثقته بالإسـلام، ففي ذلك يقـول صموئيل زويمر: «ليس الغرض التبشـير المسـيحيّ وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسـلمين من دينهم ليكونوا مسيحيّين، إذ المسلم لا يمكن أن يكون مسـيحيًّا مطلقًا، والتجارب دلّتنا ودلّت رجال السياسة على استحالة ذلك، ولكن الغاية التي نرمي إليها إنّما هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون ملحدًا أو مضطربًا في دينه، وعندما لا يكون مسلمًا ولا تكون له عقيدة يدين بها، وعندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلّا اسم أحمد، والملحد هو أوّل من يحتقر الإسلام»[1]، تأمّل ذلك واعرف مدى خطورة الموقف.

في ختام كلامنا هذا نقول: إنّ كلّ إنسان ذا شخصيّة قويّة وفكر وعمق نظر وتأمّل، لا يمكن أن تزعزعه هذه الافتراءات وهذه المخطّطات؛ لأنّ مناهج المسـتشرقين ومن يسـندهم الغرب كلّها قائمة على أساس الحقد والكراهية والتشكيك، والقصد منها هو كما ذكره صموئيل وأكثر من ذلك، ولكن الحقائق هي التي تكشـف افتراءاتهم؛ لأنّ المستشرقين قد عجزوا عن التوصّل إلى نتائج موضوعيّة في دراساتهم الإسلاميّة إلى عدم قدرتهم على تمثيل الروح الشرقيّة؛ إذ يقول سـيّد قطب في ذلـك: «ولكي يفهم الإنسـان مادّته ويفسّرها ينبغي أن يكون لديه الاسـتعداد لإدراك مقوّمات السنن البشريّة جميعها... وأن يفتح روحه وفكره وحسّه للحادثة، فأمّا إذا كان يتلقّاها ابتداء، وهو معطّل الروح أو الفكر أو الحسّ عن عمد أو غير عمد، فإنّ هذا التعطيل...

١. الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منه، ٥٠.

يحرمه استجابة معيّنة للحادثة التاريخيّة... ومن ثمّ يجعل تفسيره لها مخطئًا أو ناقصًا، وهذه الاستجابة الناقصة هي أوّل ظاهرة تتّسم بها البحوث الغربيّة عن الموضوعات الإسلاميّة؛ ذلك أنّ هناك عنصرًا ينقص الطبيعة الغربيّة -بصفة عامّة- لإدراك الحياة الشرقيّة بصفة عامّة، والحياة الإسلاميّة على وجه الخصوص، وهو عنصر الروحيّة الغيبيّة، وكلّما كانت هذه الموضوعات الإسلاميّة ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى في حياة الإسلام، كان نقص الاستجابة إليها أكبر»[1].

أمّا السباعي فقد أيّد سيّد قطب في ذلك، إذ قال: «أمّا أولئك المستشرقون فنسوا أنّه كان عليهم، قبل كلّ شيء أن يسدّوا الهوّة السحيقة التي تفصل بين عقليّتهم الغربيّة والأشخاص الشرقيّين الذي يترجمون لهم، وأنّهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا في الوهم في كلّ نقطة»[2].

١. نقلًا عن: شايب، نبوة محمّد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، ٥٨١.

٢. مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، ٤٩.

الخاتمة

لقد بيّنت بالأدلّة القاطعة قدر الإمكان، وهذا قليل من كثير، أنّ الرسول ﷺ هو المثل الأعلى للبشريّة، ليس هذا الإثبات لنا نحن المسلمين، بل للمستشرقين المفترين بصورة خاصّة والغرب بصورة عامّة، ولا يهمّنا أبدًا هل أخذوا بهذه الأدلّة أم لا؟ سواء منّي أو من غيري.

وقد بيّنتُ بطلان دعوى المستشرقين بأنّ الرسول ﷺ انتحل مادّة القرآن الكريم وأسلوبه وألفاظه من كتب اليهود والنصارى أو كتب غيرهم، وقد خلص البحث إلى نتائج مهمّة منها:

١. نشأ الاستشراق في رعاية الكنيسة وخضع لسياسة علميّة مدروسة غايتها غزو المسلمين فكريًّا وإخضاعهم لقوى البغي والاستعمار.

٢. إنّ ما ذهب إليه عامّة المستشرقين من أخذهم بالمناهج العلميّة في دراسة الإسلام وحضارته وانتشاره غير مسلّم لها، وهذا يدحض تلك الآراء المبثوثة في دراساتهم عن الإسلام والمسلمين.

٣. نالت كتابات المستشرقين من شخص الرسول ﷺ واتهامه بالكذب وأنّه افترى القرآن من عند نفسه.

٤. الإيحاء بأنّ الإسلام ليس من عند الله ﷻ، بل هو من أفكار محمّد ﷺ التي تشبّعت بالأفكار اليهوديّة والنصرانيّة.

٥. محاولة المستشرقين إيجاد جذور للنصوص الدينيّة الإسلاميّة من النصوص اليهوديّة والنصرانيّة، وإيهام القارئ بأنّها كانتا الينبوع الذي استقى منه الرسول ﷺ أصل الديانة الإسلاميّة وفروعها.

٦. يهدف المستشرقون بصورة عامّة إلى محو الشخصيّة الإسلاميّة، باعتبارها العدوّ الوحيد الذي يهدّد الغرب.

٧. لأنّ التعصّب الدينيّ ما يزال أثره باقيًا في كثير ممّا يكتبه الغربيّون عن الإسلام وحضارته، وقلّما نجد إنصاف الإسلام ورسوله ﷺ عند بعض العلماء والأدباء والغربيّين الذين تحلّلوا عن سلطة ديانتهم، فكانوا منصفين للإسلام بصورة عامّة والرسول محمّد ﷺ بصورة خاصّة.

٨. راح بعض المستشرقين يشكّكون بالماضي، ويزيّفون بعضًا من حقائقه تزييفًا يرفضه أيّ مفكّر، وقد برز بينهم من يكشف ذلك التزييف دفاعًا عنا يثبت من خلال ذلك إخلاصه وعلميّته.

يهدف بعض المستشرقين إلى نقل صورة عنّا إلى بلدانهم وشعوبهم تلك الصورة التي كوّنوها عنا بعد أن ركّزوا على الماضي فقط، وألصقوا به صورًا مشوّهة، ففصلوا الحاضر عنها، قاصدين خلق هوّة سحيقة تفصل بين ذلك الماضي وبين الحاضر الذي أهملوه.

وخلاصة ما انتهينا إليه من النتائج السالفة من هذا البحث أنّ كتابات بعض المستشرقين هي خليط شيء من الآراء والأفكار والتفسيرات المادّيّة الباطلة لنصوص القرآن الكريم والسنّة النبويّة الطاهرة، والتشويه المتعمَّد والمغرض لحقائق التاريخ.

والإسلام هو دين الله ﷻ للعالم كلّه، لا يمكن أن يستأثر بفهمه قوم دون قوم، فليفهم منه من شاء ما شاء، بشرط أن يتحلّى بصفة العلماء، وهي الإنصاف والإخلاص للحقّ والبعد عن العصبيّة والهوى.

ولا يسعني في ختام هذا البحث إلّا أن أكرّر ما أسلفت الإشارة إليه وهو أنّ الموضوع واسع الأرجاء وكثير الآراء، وقد بذلت ما استطعت، ولا يكلّف الله نفسًا إلّا وسعها، ولا أعتقد أنّ عملًا بشريًّا يخلو من هفوات، ولعلّها تكون معدودة، وأطمح أن تكون البداية موفّقة ومن سار على الدرب وصل.

أهم التوصيات التي يشيد بها الباحث

يجب على العلماء والدعاة العمل على كشف باطل المستشرقين وتحريفاتهم للقرآن الكريم، وإساءتهم لشخص الرسول الكريم ﷺ والردّ عليهم بالحجج الساطعة والبراهين الواضحة.

وجوب حماية المسلمين من الاستشراق والمستشرقين وذلك بتحصينهم بالإسلام ومبادئه حتى لا يكونوا عرضةً لهم ولأهدافهم.

ضرورة إغناء مكتباتنا بالأبحاث والمقالات التي تصدر في معظم بقاع العالم عن الإسلام والمسلمين وخصوصًا ما أصدره المستشرقون، لكي نكون على اطّلاع تامٍّ على ما ينويه هؤلاء المعادون لنا.

ضرورة تعريف طلّابنا عن طريق مناهجهم التعليميّة وعن طريق عقد مؤتمرات علميّة نبيّن من خلالها فكرة الغربيّين عنهم وعن دينهم وعن تراثهم وحضارتهم؛ لكي يكونوا على بيّنة بما يجري، وإلى أيّ شيء يهدف إليه الغرب.

يجب على كلّ مسلم أن يردّ ولو بالقدر البسيط على مزاعم هؤلاء الملحدين الغربيّين لنصرة الرسول الكريم ﷺ، فيعدّ هذا واجبًا مقدّسًا، خصوصًا ونحن أمام ما نواجهه اليوم من اعتداءات على الإسلام عامّة والرسول ﷺ بصورة خاصّة.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا..

لائحة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. ابـن ابي جمهور، محمّد بن علي بن إبراهيم، ت ٨٨٠هـ، عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، تح: مجتبى العراقي، قم، مط: سيد الشهداء، ط١، ١٩٨٤م.

٣. ابن أبي عاصم، ابوبكر احمد بن عمرو بن ابى عاصم ضحاك شـيبانى، ت ٢٨٧هـ، الآحاد والمثاني، تحقيق: باسم فيصل أحمد، دار الدراية، د.مك، ط١، ١٩٩١م.

٤. ابن الأثير، عزالدين أبي الحسـن، ت ٦٣٠هـ، أسـد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، دار الكتاب العربّي، ب.ت.

٥. ابن حبان، محمّد بن أحمد، ت ٣٥٤هـ، الثقات، الهند، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ب.ت.

٦. ابن حجر العسـقلاني، أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ، الإصابة في تمييـز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ب.ت.

٧. ابن راهويه، إسـحاق، ت ٢٣٨هـ، مسـند ابن راهويه، تح: عبد الغفور عبد الحقّ، المدينة المنورة، مكتبة الإيمان، ط١، ١٤١٢هـ.

٨. ابن سـيد الناس، محمّد بن عبد الله، ت ٧٣٤هـ، عيون الأثر في فنون المغازي والشـمائل والسـير، بيروت، مؤسّسة عز الدين، ١٩٨٦م.

٩. ابن عساكر، علي بن الحسن، ت ٥٧١هـ، تاريخ مدينة دمشق، تح: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ.

١٠. ابن منظور، محمّد بن مكرم، ت ٧١١هـ، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط١، ب.ت.

١١. ابن نبي، مالك، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلاميّ، بيروت، دار الرشاد، ط١، ١٩٦٩م.

١٢. ابن هشـام، أبو محمّد عبد الملك، ت ٢١٨هـ، السـيرة النبوية، تح: محمّد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مط: مدني، ١٩٦٣م.

١٣. أبو ريه، محمود، ت ١٣٨٥هـ، أضواء على السنة المحمّدية، مط: البطحاء، د.مك، ط٥، ب.ت.

١٤. إدريس، جعفر الشيخ، «منهج مونتغمري وات دراسة نبوة محمّدﷺ»، بحث في: مناهج المستشرقين في الدراسات العربيّة الإسلاميّة، ج١، الرياض، ١٩٨٥م.

١٥. أرنولد، السير توماس، الخلافة تاريخ الحضارة الإسلاميّة حتى آخر العهد العثماني، ترجمة: محمّد شكري العزاوي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٥٦م.

١٦. الآلوسي، محمّد بن إدريس، ت ١٢٧٠هـ، تفسير الآلوسي، د.مك، ب.ت.

١٧. أولـيري، دي لاسي، الفكر العربيّ ومركزه في التاريخ، ترجمة: إسماعيل البيطار، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ١٩٧٢م.

١٨. بارت، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة: محمّد بدران، القاهرة، المطبعة الإسلاميّة،ط٣، ١٩٩٣م.

١٩. برتو، عصام فخري، الرؤية الاستشراقية تجاه النبيّﷺ، بحث المؤتمر العلمي السابع في السيرة النبويّة، بابل، الكلّيّة الإسلاميّة الجامعة، ٢٠١٣م.

٢٠. البرقي، أحمد بن محمّد ، ت ٢٧٤هـ، المحاسن، تحقيق: جلال الدين الحسينيّ، طهران، دار الكتب الإسلاميّ، ١٣٧٠هـ.

٢١. بركات، هاني محمّد يونس، الاستشراق والتربية، بيروت، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٣م.

٢٢. بريجيس وآخرون، تراث الإسلام، ترجمة: وشرح زكي محمّد حسن، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م.

٢٣. البغوي، الحسين بن مسعود، ت ٥١٠هـ، تفسير البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، بيروت، دار المعرفة، ب.ت.

٢٤. بودلي، ر.ف، حياة محمّد الرسول، ترجمة: محمّد محمّد مزج، القاهرة، مكتبة مصر، ب.ت.

٢٥. الجندي، أنور، الفكر الإسلاميّ الثقافي العربية في مواجهة تحديات الاستشراق والتبشير والغزو الفكري، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٨م.

٢٦. جيوم، ألفرد، الإسلام، ترجمة: محمّد مصطفى هذاره، القاهرة، دار النهضة، ١٩٥٨م.

٢٧. الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها على الدراسات الإسلاميّة، مالطا، مركز دراسات العالم الإسلاميّ، ط١، ١٩٩١م.

٢٨. الحاكم النيسابوريّ، أبي عبد الله، ت ٤٠٥هـ، مستدرك على الصحيحين، تحقيق: يوسف عبد الرحمن، د.مك، د.مط، ب. ت.

٢٩. حسن ، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة، ط٩، ١٩٧٥م.

٣٠. الحكيم ، حسن، المستشرقون، دراساتهم للسيرة النبويّة: بحث في كتاب المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلاميّ، النجف الأشرف، مطبعة القضاء، ١٩٨٦م.

٣١. حنفي، حسن، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات، ط٤، ١٩٩٢م.

٣٢. حنيف، عبد الودود، مصدر القرآن الكريم، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقيّة، ٢٠٠٦م.

٣٣. الدولابي، محمّد بن أحمد، ت ٣١٠هـ، الذرية النبوية الطاهرة، تحقيق: سعد مبارك الحسن، الكويت، الدار السلفيّة، ط١، ١٤٠٧هـ.

٣٤. زرزور، عدنان محمّد، وآخرون، الثقافة الإسلاميّة والتحدّيات المعاصرة، القاهرة، مركز الحكمة، ١٩٩٥.

٣٥. زكريا، هاشم، المستشرقون والإسلام، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ١٩٩٦م.

٣٦. الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منه، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٩٢م.

٣٧. الساموك، سعدون محمود، الوجيز في علم الاستشراق، عمان، دار المناهج، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٨. ــــــــــــــــ، مناهج المستشرقين، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

٣٩. السباعي، مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، بيروت، المكتب الإسلاميّ، ط٢، ١٩٧٩م.

٤٠. سعيد ، إدوارد، الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، .ب.ت.

٤١. شاكر، محمود محمد، إعجاز القرآن، بيروت، دار الفكر، ط١، ب.ت.

٤٢. شايب، لخضر، نبوة محمّدﷺ في الفكر الاستشراقيّ المعاصر، ب.ت.

٤٣. الشربيني، محمّد بن أحمد، ت ٩٧٧هـ، مغنى المحتاج، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٥٨م.

٤٤. شرف الدين، عبد الحسين، ت ١٣٧٧هـ، النصّ والاجتهاد، تح: أبو مجتبى، قم، مط: الشهداء، ط١، ٤٠٤هـ.

٤٥. الشرقاوي، محمّد عبد الله، الاستشراق في الفكر الإسلاميّ، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٣م.

٤٦. شلبي، عبد الجليل، الإسلام والمستشرقون، القاهرة، مط: دار الشعب، ١٩٧٧م.

٤٧. ــــــــــــــ، الوحي المحمّدي وآراء المستشرقين، القاهرة، المؤتمر العالميّ الرابع للسيرة والسنّة، ب.ت.

٤٨. شلتوت، محمود، الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة، دار الشروق، ط٦، ١٩٧٢م.

٤٩. الصالحي، محمّد بن يوسف، ت ٩٤٢هـ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تح: عادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣م.

٥٠. الصدر، السيد رضا، محمّد في القران، إيران، مطبعة القدس، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٥١. الصغير، محمّد حسين علي ظاهر، الوعي والمستشرقون، بحث في كتاب المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلاميّ، ب.ت.

٥٢. الطباطبائي، محمّد حسين، ت ١٤١٢هـ، تفسير الميزان، قم، د.مط، ب.ت.

٥٣. الطبرسي، علي، ت ٧ق، مشكاة الأنوار، تح: مهدي هوشمند، دار الحديث، قم، ط١، ب.ت.

٥٤. عبد الباقي، محمّد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ.

٥٥. العجلوني، إسماعيل بن محمّد، ت ١١٦٢هـ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.

٥٦. العقاد، عباس محمود، الإسلام والحضارة الإنسانيّة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ب.ت.

٥٧. ــــــــــــــ، عبقرية محمد، القاهرة، نهضة مصر، ب.ت.

٥٨. العقيقي، نجيب، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٠م.

٥٩. عوض، ابراهيم، المستشرقون والقرآن، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلاميّ، مكة المكرمة، ب.ت.

٦٠. غراب، أحمد عبد الحميد، الاستشراق وآل سعود، دار العظيم، ١٩٩٤م.
٦١. الغزالي، مشتاق بشير حمود، تطور الاستشراق البريطاني كتابة السير النبوية الشريفة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠١م.
٦٢. قاشا، سعيد، المستشرقون الانكليز، بحث في مجلة الاستشراق، العدد الثاني، بغداد، ١٩٨٧م.
٦٣. القاضي النعمان، أبي حنيفة بن محمّد، ت ٣٦٣هـ، شرح الأخبار في فضائل الأئمّة الأطهار، تح: محمّد الحسيني الجلالي، قم، مؤسسة النشر الإسلاميّ، ب.ت.
٦٤. الكليني، أبي جعفر محمّد بن يعقوب، ت ٣٢٩هـ، الكافي، تح: علي اكبر غفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط٣، ب.ت.
٦٥. كومش، صدر الدين، مصادر القرآن الكريم عند المستشرقين، ندوة القرآن الكريم في الدراسات القرآنية، ٢٠٠٦م.
٦٦. اللبان، إبراهيم عبد المجيد، المستشرقون والإسلام، مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٩٧٠م.
٦٧. لويس، برنارد، العرب في التاريخ، ترجمة: نبيه أمين فارس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٤م.
٦٨. المازندراني، محمّد صالح، ت ١٠٨١هـ، شرح أصول الكافي، تح: أبو الحسن الشعراني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٠م.
٦٩. ماضي، محمود، الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، دار الدعوة الإسكندرية، ط١، ١٩٩٦م.
٧٠. المجلسيّ، محمّد باقر، ت ١١١١هـ، بحار الأنوار، تح: عبد الرحيم الرياني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٨٣م.
٧١. مرعي، هدى عبد الكريم، الأدلة على صدق النبوة المحمّدية ورد الشبهات عنها، عمان، دار الفرقان، ط١، ١٤١١هـ.
٧٢. مسلم، أبي الحسن بن الحجاج، ت ٢٦١هـ، صحيح مسلم، بيروت، دار الفكر ، ب.ت.
٧٣. المنظّمة العربيّة للترجمة والثقافة والعلوم، «المقدمة» في: مناهج المستشرقين في الدراسات العربيّة الإسلاميّة، ج٢، الرياض، ١٩٨٥م.

٧٤. النائيني، رفيع الدين بن حيدر، ت ١٠٨٢هـ، الحاشية على أصول الكافي، تحقيق: محمّد حسين درايتي، قم، دار الحديث، ط١، ١٤٢٤هـ.

٧٥. نذير، حمدان، الرسول في كتابات المستشرقين، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ط١، ب.ت.

٧٦. النعيم، عبد الله محمّد، الاستشراق في السيرة النبوية، فرجينا، المعهد العالمي للفكر الإسلاميّ، ط١، ١٩٩٧م.

٧٧. الواحدي، محمّد بن أحمد، ت ٤٦٨هـ، تفسير الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٥هـ.

٧٨. وات، مونتغمري، محمّد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٥٢م.

٧٩. ــــــــــــــــ، محمّد في مكة، ترجمة: شعبان بركات، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ب.ت.

٨٠. الهواري، حسين، المستشرقون والإسلام، القاهرة، مطبعة المنار، ط١، ١٩٩٦م.

٨١. اليعقوبي، أحمد بن اسحق بن جعفر بن وهب، ت ٢٨٩هـ، تاريخ اليعقوبي، تحقيق: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.